دينا نسريني

# ذاكرة الورد

رواية

دار دَوِّن

# ذاكرة الورد

الطبعة الأولى : يناير 2016
رقـم الإيـداع : 2015/ 22114
الترقيم الدولي : 5-82-6426-977-978
تصحيح لغوي : محمد جودة
تصميم الغلاف : كريم آدم


تليفون : 01020220053
E_mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

# ذاكرة الورد

رواية

دينا نسريني

دَوِّنْ

للنشر و التوزيع

دار دوّن للنشر والتوزيع

# الإهداء

الياسمينتان السوريتان عالية، ونور... يوماً ما سيعرفون قيمة الياسمين الحقيقية.

إلى كل ياسمينةٍ تتأوه بصمت: لا تسمحي لألمهم بأن يغيّر طيب شذاكِ.

إلى كل الباحثين عن فهم أبجدية الزهور:

لا يهم الزهرة أي إناءٍ أو حديقةٍ تضعها فيها؛ سواء كانت في أصغر حفرةٍ في حديقةٍ تائهةٍ وسط اللامكان أو في جوف زهريةٍ زمرديّةٍ على أغلى المكاتب في قصر ملكة إنكلترا.. لا يهم.. المهم أن تلمسها أكفّ النسيم ويداعب بتلاتها دفء الشمس؛ قد تُلبس الزهرة تاجاً أو تلفّ حولها ملايين الأشرطة البراقة.. لكن لن يسعدها إلا أن تنال بضعة قطراتٍ من ماء الرعاية والاهتمام.

بعض الناس يجب، ولا يمكن إلا تهديهم جزءاً من روحك..
إلى ماما وأخوي العزيزين جاد ومحمد.

**I can be so mean when I wanna be** [*]

**I am capable of really anything**

**I can cut you into pieces**

**When my heart is**

**Broken**

**So.. please.. please**

**Don't leave me**

***p!nk***

(*) قد أكون لئيمةً جداً عندما أودّ ذلك، فعلاً بإمكاني القيام بأي شيء، أستطيع تقطيعك إرباً، عندما يكون قلبي مكسوراً، لذا أرجوك، أرجوك.. لا تتركني.

التنورة الواسعة البيضاء كانت تتراقص مع خطواتها بمرح، فيما يسبح خلفها عطرٌ زهريٌّ حالم، أحسّتْ بخصلةٍ عنيدةٍ تُفلتُ لتداعب خدَّها، فسحبتها وأعادتها تحت حجابها الزهريّ بسرعة.

صمتت موسيقى وقع خطواتها وهي تقف أمام لافتةٍ نحاسيةٍ صغيرة، نُقش عليها بخطٍّ أنيق «الدكتورة ياسمين شعلان»، ابتسمت بفخرٍ وأصابعها تلامس اللافتة، ثم عادت تنورتها تتراقص على وقع خطواتها وهي تتجه لداخل العيادة.

أخذت تدور داخل حجرة الانتظار بسعادةٍ طفولية، ودَّت لو يكون إلى جانبها الآن لتحضنه وتمطر وجهه الحبيب بالقبلات، لكنه آثر تركَها لتستمتع بهذه اللحظة لوحدها.

هي لم تتوقَّع أبداً أن تحصل على هدية شهر عسل، ناهيك عن أن تكون تلك الهدية تحقيقاً لأحد أهم أحلامها ـ وأحلام الكثيرين في الواقع ـ أن تضع قدميها على أول سلم النجاح المهَني، ويكون لها عيادتها الخاصّة!.

جلست على أحد المقاعد الأنيقة، لتغرق في اللون الأزرق الجميل المنساب بهدوءٍ ورقّةٍ على الجدران، كانت كل تفصيلةٍ تماماً كما وصفتها له، حتى إناء الزهور القابع على الطاولة إلى جانب المجلات المتعددة؛ لقد كان يصغي جيداً لأدقّ التفاصيل

وهي تنهمر من شفتيها بطموحٍ، سعادةٍ وأمل... الآن فقط فهمت بريق عينيه عندما انتهت من سرد أوصاف «العيادة الحلم» وهي تتنهد وتضحك معقّبةً: «يوماً ما... على كل حال.»

ضحكت ضحكةً رقيقةً وهي تسيطر على موجة الشوق العارمة التي اعترتها وهي تمنع نفسها بصعوبةٍ من أن تقفل العيادة، تلغي موعدها للمرة الثالثة لتهرول إليه وترتمي بين أحضانه؛ صوت رنين المنبه على هاتفها الجوّال أعلَمها بأنه قد تبقى على موعدها ١٥ دقيقة، عليها أن ترتب جيداً للجلسة قبل وصول مرضاها.

ضغطت بإصبعها على شاشة الهاتف، ونهضَتْ إلى غرفتها ودقات قلبها تتسارع، بقي من الوقت خمس عشرة دقيقةٍ فقط لتصبح رسمياً «الدكتورة ياسمين».

أن تراقب سيل أفكارهم، وتتسلل منها إلى روحهم لتبحث عن بقع عذاباتهم، وتلملمها الواحدة تلوَ الأخرى، حتى تطيب النفس لتبدأ بإشعال أنوار السعادة بداخلها، وعوضاً عن هواجس العذاب والألم، تتحول الرّوح إلى زهرةٍ زاهيةٍ تتألق بفخر رغماً عن أنف نسيج الأيام القاتم...

أو كما يسميه أكثر الناس اختصاراً للوقت «علم النفس»

هي ليست طبيبةً نفسيةً لتكتب الأدوية وتصف الجلسات الكهربائية لتصحح شارديّةً خاطئة، أو مشاكل في كهرباء الدماغ، هي معالجةٌ نفسية، تكمن مهمتها في أن ترتّق بمهارةٍ وحنكةٍ تلك المزقات التي تتعرض لها نفوسنا من شدّة ضغوط الحياة، سواء كان ذلك عن طريق الحوار والغوص في ماضي المريض، وإجباره على العودة له للبحث عن بذرة الألم، أو التنويم المغناطيسي للسيطرة غير المباشرة على العقل الباطن،

للتحكـم فيما يشـذّ من تصرفاتٍ وما يجنح عـن الطبيعي، أو عن طريق جلسـات العـلاج الجماعي، وهو بالذات ما تحمّسـت له ياسـمين منذ بداية تخصصها.

كانت الأفكار تسبح في عقلها الدؤوب وهي تزحزح كرسياً هنا وتبعد منضدةً هناك، حتى صارت الغرفة جاهزةً تماماً؛ لا شيزلونج طويلا يستلقي المريض عليه، ولا طاولةٌ ومكتب يقبع خلفهما الطبيب بخيلاء، إنما جلسةٌ عائليةٌ دافئة، مرتّبةٌ على هيئة مقاعد وثيرةٍ متناثرةٍ بأسلوبٍ مريح، لتمنحك الإحساس بأنك في زيارةٍ حميمةٍ لأعزّ أصدقائك؛ حتى إنها لم تنسَ أن تضع على الطاولة طبقاً صغيراً مملوءاً بحبات الـ«بيتيفور»، وأن تملأ إبريق الشاي بالسائل الأحمر الدافئ اللذيذ، فيما اصطفّت على الصينية ستة فناجين أنيقة إلى جانب سكريةٍ مزدانة بزهورٍ ملوّنة؛ الستائر مفتوحة، والنور يغمر الحجرة ليتناثر على لوحةٍ مثبتةٍ على الجدار، تتراقص في سيمفونية لونيةٍ هادئةٍ لتتناغم مع لون الجدران العاجيِّ الهادئ.

«ماذا الآن؟» سألت نفسها وهي تختار لنفسها مقعداً مواجهاً للباب مباشرةً «سأشغل نفسي» قرّرتْ وهي تمسك بدفترها وتبدأ بتدوين بعض النقاط عليه، ليس لأنها كانت تحتاج لها، لكنها كانت طريقةً لتهرب من بداية تعارفيّةٍ طويلة متوقّعةٍ من أول الوافدين يقطعها دخول وافدٍ جديد، مولّداً علاقةً سلبيةً مبدئيةً بين الاثنين، وهو آخر ما كانت تحتاج إليه، فكان القرار أن تتظاهر بالانهماك بملاحظاتها حتى يكتمل عدد مرضاها، وكلما دخل أحدهم تشير له ليجلس وابتسامةٌ لطيفةٌ تملأ وجهها الهادئ، لترحب به بصمتٍ دون أن ترفع عينيها عن دفترها، وعندما أحصت خمس وافدين اتّسعت ابتسامتها، وضعت دفترها جانباً ورفعت رأسها.

أمامها مباشرةً كانت تجلس سيدةٌ بثيابٍ كلاسيكيةٍ متناسقة، الدانتيل الأسود، والحقيبة الصغيرة الممهورة بوسم كريستيان ديور الشهير، مفاتيح سيارةٍ مع حمالةٍ ذهبيةٍ تتراقص بين أصابعها، ونظارةٌ كبيرةٌ قاتمة، لا تتمكن من تغطية نظرةٍ متعالية، فيما تسيطر عليك حركاتها ورائحة عطرها الخفيفة المحيطة بها كسحابة، أو كهالةٍ تخُطُّ لك الحدود بينك وبينها، سيدة مجتمعٍ من الطراز الأول، خُلقت لتقول: «أنا أفضل منك!».

إلى يمينها جلست فتاةٌ بدينة، نعم هذا هو أول ما يمكنك أن تصفها به، تتبع ذلك الوصف جملةٌ تؤكد لك الفتاة لاحقاً أنها لعنتُها «تقاطيعها فاتنةٌ جداً، خسارةٌ أن يضيع جمالٌ كهذا على جسدٍ...... ـ وهنا تختار كلماتك بلباقةٍ تذبحها أكثر من الصراحة الموجعة ـ على جسدٍ ممتلئ»؛ والمرحلة التالية تبدأ مباشرةً عندما تشحذ طاقاتك الفكرية، لتبحث في ذاكرتك عمن «هم مثلها» وتخلصوا من هذه اللعنة، أو كما تسميها بدبلوماسيةٍ تُحسد عليها «خسروا الوزن وأصبحوا غايةً في الجمال» وقد تتعدى ذلك إلى البحث عن ورقةٍ وقلمٍ لتكتب لها «الوصفة السحرية» التي ستنقذها من «بدانتها» وعندما... بعد حين... تلاحظ النظرة الميتة في عينيها الحزينتين، تغرس سكينك الأخير مبرراً «طبعاً هذا فقط من أجل صحتكِ» لترد عليك بنظرةٍ مفادها «لا بأس.. أعلم بأنك تراني قبيحة.»

إلى جانبها مباشرةً تقبع فتاةٌ ضئيلة الحجم، أو ربما تبدو كذلك لأنها ترفض الجلوس على أحد المقاعد الوثيرة، وتؤثر الجلوس أرضاً إلى جانب النافذة، ركبتاها مضمومتان نحو صدرها، وعلى ساقيها يستريح كرّاس رسم ضخم، في حين تقبض أصابعها على الكثير من الأقلام، وعلى الرغم من تنوع الألوان في يديها إلا أن

وجهها الشاحب البريء خلا تماماً من مساحيق التجميل، لتبدو بنظرتها المتفحصة كطفلةٍ تستكشف الدنيا لأول مرة.

«Fuck you» كبيرةٌ فاقعةٌ صادمة، تخطف كل الأضواء وأنت تستدير برقبتك لتراها تتلألأ على قميصٍ ضيّقٍ ملتصقٍ بنهدين فائرين جريئين، طلاء أظافرٍ لامع، شفتان مطليتان بالأحمر الفاقع، شعرٌ ناريٌّ متمرد يرقص غجرياً مجنوناً حول كتفيها، ليعلن تمرده التام والمطلق على كل متطلبات المجتمع وقوانينه، وما أن تلاحظ نظراتك المحدّقة ـ جائعةً كانت أو مستنكرة ـ حتى تبادلك صاحبته النظرة بابتسامةٍ سخرية، وحركة إصبعٍ شهيرةٍ تترجم الجملة المكتوبة على قميصها.

وفي الزاوية الأشد ظلّاً وظلمةً في الغرفة، تجده قابعاً بهدوء، وما هي إلا نظرةٌ واحدةٌ له، لا يسعك بعدها إلا أن تتذكر الحديث النبوي الشريف «اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»

ففي ملامحه الحزينة، ذقنه المهملة، رأسه المطأطئ والنظرة الكسيرة في عينيه، ترى المعنى التام لـ«قهر الرجال»، كميةٌ هائلةٌ من الحزن تدفعك دفعاً لتقترب منه، وتضع يدك على كتفه مربتاً، أو حتى... تأخذه في حضنك مواسياً.

عنـد هذا الحدّ، أشـاحت ياسـمين بناظريها مرتبكةً لتمسـك بدفترهـا من جديـد، محدثةً نفسـها بأنه قد حـان الوقت لتعرّف عن نفسـها وتبدأ الجلسـة الأولى.

أناملي تلمس ملايين النجوم، لتستحيل قطرات الندى
بين كفيّ زهوراً يخلّدها الأمل في حقول الذكرى الوسيعة،
هي بسمةٌ من نورٍ وسحرٍ خاص، تمنح فيه الحياة أغلى لآلئها،
فقط في البداية... بداية قصتنا.

# الجلسة الأولى

# بدايات

# (١)

ما أن عدّلت ياسمين من وضعها على الكرسي، حتى سُلِّطت عليها خمسة أزواجٍ من الأعين، كل زوجٍ منهم كان يحمل نظرةً مختلفة، فكان المترقب والمستخف، التائه والمركّز، وأخيراً المتحدّي.

لا بد من أن ابتعادها عن الممارسة لمدةٍ طويلةٍ ترك الكثير من الغبار على مهاراتها في لعبة السيطرة؛ استحضرت ثقتها وقوتها من مكانٍ ما خفيٍّ في روحها الشفّافة، رسمت وقاراً على محياها، وبدأت بالكلام:

ـ لن أطيل تعريفكم عن نفسي، فأنا ببساطة «ياسمين»، اعتبروني صديقةً لكم أو أختاً كبيرة، مهمتي تكمن في إدارة جلساتنا بهدوء وتفاهم، والتأكد من أن يحصل كلٍّ منكم فيها على الإفادة القصوى الممكنة؛ سبق وأن تعرفت إلى كلٍّ منكم على الإنترنت، وتعرفت على لمحةٍ بسيطة عن مشاكلكم، وأنا أقبل طلبات تسجيلكم في جلسات العلاج الجماعية تحت عنوان «ألم الفراق»، وهي

جلسـاتٌ تهدف لتخطّي المعاناة الناتجة عن فقدان شـخصٍ عزيز، منكـم من فقد أخاً أو زوجاً، ومنكـم من فقد حبيباً أو حبيبة، ومنكم من فضل التكتم المبدئي على أساس مشـكلته؛ أنـاسٌ خرجوا من حيواتنـا بطريقةٍ مفاجئةٍ أو عنيفة، مما ترك فجواتٍ في ذاتنا، حتّمت علينا العـادة، الأطر المجتمعيـة، والمكتسـبات الأخلاقية بداخلنا أن نملأها بالألم والحسـرة، أو حتى الإشـفاق علـى الذات أحياناً، والتمرد في أحيانٍ أخرى؛ هذه الفجوات في حال لم نسـيطر عليها، تبدأ بالاتسـاع والاتساع، حتى تلتهم مسـاحة وجودنا كاملةً لتسيطر علـى حياتنا، وتحوّلنا لكيانٍ فارغٍ مليءٍ بالألم والمرارة، كيانٍ عاجزٍ غير قـادرٍ على التبـادل العاطفي والاجتماعي، فننغلـق داخل دائرة الندم المتكررة اللامنتهية.

في جلسـاتنا سـنعرض تجاربنا المختلفة، سـنبحث عن أوجه التشـابه والتلاقي فيما بينهـا، فهي في النهاية واحدة، على اختلاف أسـاليب تعاطينـا معها، إلا أن الألـم في النهاية واحد، نحن لسـنا وحيدين في هذه التجربـة، بل هناك آخرون مثلنا غارقون في عزلةٍ ووحدةٍ إنسـانيةٍ مدقعة، سنحاول كسر حدتها بالاقتراب من بعضنا بعضاً، واستكشـافنا لتحسـن نظرائنا، لنتشارك في النهاية فرحة كل واحدٍ منّا بالتحرر من سـجن ذاته.

سـبق وقلت لكـم إنني قد تعرفت إلـى كلٍّ منكم على حدة على الإنترنـت، لكننـي لم أحظ بمقابلـةٍ على أرض الواقـع، أي أنني لا أعرف اسـم أيٍّ منكـم؛ واليوم أترك لـكلٍّ منكم حرية اختيار اسـمٍ رمزيٍّ يستخدمه في جلساتنا، كحفاظٍ على خصوصيته.

ومع نهاية كلماتها، رسمت ياسمين ابتسامةً حنونةً على شفتيها وصمتت لتعطيهم الوقت ليختاروا أسماءهم.

أحسّت بالفخر والسعادة، فقد وحّد النظرات المسلطة عليها ـ على الرغم من اختلاف المشاعر الدفينة الساكنة في كلٍّ منها ـ نظرة اهتمامٍ واحترام، نعم، لقد كسبت الجولة الأولى في صراعها مع الدفاعِ التلقائي للمرض بداخل نفوسهم، فالكلمات كانت تنساب من شفتيها بهدوءٍ وثقةٍ مطلقة، مما كان له فعل السحر على الجميع.

ـ ياسمين.. (لفظت الفتاة المتمردة الاسم وهي تمطّ شفتيها لتطرقع بلبانةٍ كانت تمضغها، أعادت وضع اللبانة بين فكيها وأردفت) تشبهك هذه الزهرة الهادئة، لم لا يختار كلٌّ منّا اسم زهرةٍ تمثّله؟.. أنا أختار اسم «جوري».

بلهجةٍ متلعثمةٍ واللون الأحمر يغزو وجنتيها المنتفختين، أردفت الفتاة البدينة فيما ابتسامةٌ خجولةٌ تكلل ملامحها البسيطة:

ـ «سوسن».

صوت احتكاك الأقلام بالكراس في سرعةٍ متحمسةٍ أعلن عن نشاط الفتاة الصغيرة على الأرض، وخلال ثوانٍ كانت ترفع اسكتشاً دقيقاً لزهرةٍ بيضاء رقيقة، في حين نُقِش على زاوية الصورة بحروفٍ أنيقة اسم «نسرين».

وقبل أن تعلّق ياسمين على طريقة الردّ الغريبة تلك، قاطعها صوتٌ ذو نبرةٍ متعالية، يتناسب مع صاحبته بدرجةٍ مذهلة ترافقه لثغةٌ واضحةٌ في حرف الراء لا تزيد من صوتها إلا استفزازاً:

ـ «جلّناغ»(*)

تبع الاسم ضحكةٌ رقيعةٌ من جوري، أشاحت بعدها جلنار وجهها في اشمئزازٍ مُعلَن.

---

(*) لجلنار لثغٌ في حرف الراء لذا تستبدله دوماً بالغين بلهجة أرستقراطية واضحة، أدل عليها جميعاً بخطٍ تحت الحرف.

ـ ليس هناك اسم زهرةٍ مناسبٌ لرجل.

جاء الصوت خافتاً كسيراً من الزاوية المعتمة، شيءٌ ما في صوته كان يلمس شغاف القلب، ورومنسيةٌ حالمةٌ مدفونةٌ تحت أطنانٍ من الألم.

ـ لِمَ لا تسمي نفسك قيسا؟

بريقٌ خافتٌ لمع في عيونه، وتراقص على شفتيه شبح ابتسامٍ وهو يومئ برأسه شاكراً ياسمين على اقتراحها.

ـ نعم قيس.. قيسها (وبصوتٍ أشدّ خفوتاً لا يكاد يُسمع التقطت أذنا ياسمين بصعوبةٍ اسماً) قيسُ روان.

تذكرت ياسمين رسالته الإلكترونية وكيف أنه يعاني من خسارته لحبيبته وقُبلة أحلامه، معاناةٌ دامت ما يناهز الثلاث سنوات، ووجدت نفسها تتساءل: من عساها تخسر حبّاً كهذا؟!

أرادت أن تغوص أكثر في تلافيف روحه وأن تسبر أغوار ذكرياته؛ في الواقع، كان كل الجالسين قبالتها حالاتٍ خاصةٍ جداً، اختارتهم بحرصٍ وعنايةٍ فائقة، ليشكلوا سويّاً مجموعةً متكاملة، ليكون للاختلافات الفاحشة بينهم أكبر الأثر، لرسم محاكاةٍ منطقيةٍ للعالم الخارجي بفاعليةٍ تامّة.

بدأت الحماسة تدبّ في روحها فيما بدأ الفضول العلميّ يأكلها، أو لعله كان شيئاً من غريزة الأنثى بداخلها؟ لكنها سيطرت على مشاعرها مدركةً أن هذا يكفي كجلسةٍ أولى، مقررةً أن تترك لهم المزيد من الوقت للتأقلم مع الفكرة، لا بد من شيءٍ من التآلف والانسجام حتى تتمكن من استخراج مكنون ذات كلٍ منهم.

ـ شكراً جوري على هذه الفكرة اللطيفة، وشكراً لكم جميعاً؛ بدءاً من اليوم ستكون هذه المجموعة ملاذاً لنا من آلامنا الذاتية،

وسنداً لنا بوجه ضغوط الحياة المستمرة، ستكون اليد الممتدة لكلٍّ منا ليستند إليها وهو يتجاوز عتبة اليأس، متجهاً نحو عالمٍ واعدٍ من الأمل والفرص السانحة.

نقلت ناظريها بينهم واحداً واحداً لتمنح الجميع الاهتمام الشخصيّ الذي يدعم إحساسه بالتواصل المباشر بها، ثم استأنفت:

ـ تعرفون أن جلستنا اليوم ليست أكثر من جلسةٍ تعارفية، لذا لن أطيل عليكم كثيراً، في موعدنا القادم سنحاول أن نقترب أكثر من جوهر سبب وجودنا هنا، لذا أريد من كلٍّ منكم أن يفكر في أعمق حلمٍ في ذاته ليشاركنا به؛ أراكم في نفس الموعد بعد ثلاثة أيام، المصادف يوم الإثنين إن شاء الله.

عدّلت جلّنار من وضع نظارتها على عينيها، تأبّطت جوري حقيبتها الحمراء الصارخة، فيما نهضت سوسن من على مقعدها الوثير، أنهت نسرين رسم خطوطٍ سريعةٍ في كراسها لتغلقه وتنهض برشاقة قطّةٍ سيامية، أما قيس فكان قد انسحب بهدوءٍ بين الظلال خارجاً حتى قبل أن تلمحه ينهض؛ قررت مجدداً أن تمنحهم خصوصية الرحيل، فتحت دفترها وعادت تحرك قلمها عليه بخطوطٍ عشوائية، فيما استمعت لوقع الخطوات تبتعد الواحدة تلو الأخرى.

## (٢)

انتهت مـن تقطيع الخضار بسـرعة، أضافتهـا لمحتويات الإناء على الموقد، أضافت كأسـاً من عصير الطماطم، ثم حرّكت مقبض الغاز لتخفـض النار عـن المعكرونة وترفعها تحت إنـاء الصلصة، أخذت تقلّـب محتويات الإناء بملعقةٍ خشـبيةٍ طويلـةٍ وهي تدندن برقّـة، التفتـت نصف التفاتةٍ لتنظر إلى السـاعة المعلقـة على جدار المطبـخ المزين بالزهور البيضاء الجميلـة، ما هي إلا دقائق وتنتهي من تحضير وجبته المفضلة.

أحسّـت بلسـعة بردٍ خفيفة تقرص ذراعيها، فكرت في أن تعدو مسرعةً نحو غرفتها لتحضر معطفها المنزلي، لكنها تراجعت عندما تذكـرت كيـف نسـيت الطعام فـي المرّة السـابقة، واضطـرت إلى تقديمه علـى المائدة بنيّاً مميـزاً بنكهة الفحـم الواضحة، أغمضت عينيها، أرجعت رأسـها للوراء قليـلاً، فيما رقصت ابتسـامةٌ حنونةٌ علـى شـفتيها وهي تتذكر كيف نظـر للطعام المحـروق ثم نظر إلى

وجهها المحمرّ خجـلاً، ليتناول أصابعها الصغيرة بين يديه، يغمس بها الطعام، ويضعها في فمه وسـط دهشـتها العارمة، سحب الطعام من بين أصابعها في مزيجٍ محيرٍ من التهام الطعام والقبلة الشـهوانية التـي ارتعش لها جسـمها بأكمله، أخرج أصابعها مـن فمه ثم قلَب يدها، ليقبلها على ظاهر كفّها قبلةً حنونةً وهو يقول:

ـ ألذُّ وجبةٍ تناولتها في حياتي!

رفعت رأسـها وأطلقـت تنهيدةً حـارةً ليختلط بخارهـا بالبخار المتصاعـد من آنيـة الطعـام، وتفوح فـي المطبخ روائـح الخضار المطهيـة، البهارات اللذيذة والحُبّ المكلل بالسـعادة، فيما عادت تدندن لحنها الرقيق وهي تقلّب الطعام بهدوء، مغالبةً لسعة البرد.

انتفضت من المفاجأة وهي تشـعر بلمسـةٍ علـى كتفيها لتغوص بعدهـا بين ذراعيه بسـعادةٍ وهو يمـدّ ذراعيه حولها ليطـوّق كتفيها محتضناً إياها بقوةٍ وحب، ضاحكاً بشقاوةٍ من انتفاضتها.

ـ لم أشعر بكَ وأنت تدخل!

ـ غريب! ترى بمن كنتِ تفكرين؟

تساءل متفاخراً وهو متأكدٌ تماماً من أنه كان محور أفكارها، فقد لمح نظرة الهيام على عينيها وهو يقترب منها متسللاً بهدوء القط.

دفء ذراعيه كان ملاذهـا وقصرها، ذابت وهو يلتصق بها طابعاً قبلـةً حـارّةً علـى رقبتها، وكعـادة الزوجـات الدائمة فـي مثل هذا الموقف هتفت بضعف:

ـ الطعام!

قهقه بصوتٍ عالٍ وهو يلصق خدّه بخدّها محرراً يديها، وذراعاه تتشابكان حول خصرها كطفلٍ صغيرٍ يتعلق بأمه:

ـ كيف كان يوم «قزمتي»؟

هي لم تكن قصيرةً أبداً، لكن مروان كان فارع الطول ذا بنيةٍ قويةٍ تخطف الأنفاس، وحين لاحظ كيف تستفزها هذه الكلمة بشكلٍ يخطف قلبه، داوم على إغاظتها بها «قزمتي».

ما أن سمعت اللقب حتى حاولت أن تستدير لتواجهه بتحدٍّ طفوليّ

ـ أنا لستـ......

لكن يدها ارتطمت بالإناء المستعر، مسببةً حرقاً مؤلماً، ندّت عنها صرخة ألمٍ فيما حررها من ذراعيه مبتعداً عنها قيلاً والقلق يرتسم على وجهه الوسيم، ركضت نحو الصنبور لتفتح الماء البارد على يدها، ارتسم الألم في عينيه الداكنتين ليزداد سوادهما بطريقةٍ قاتلة..

ـ أنا بخير حبيبي لا تقلق!

قالتها وهي تجفف يدها، ثم ترشها بالرذاذ الطبي الذي ناولها إياه، اقترب منها وأمسك يدها برقة..

ـ أنا آسف.

ـ لا عليك حبيبي، إنها غلطتي فأنا لم أنتبه للإناء.

رفع يدها إلى شفتيه وأخذ يمطرها بالقبلات الرقيقة، ثم حملها متجّهاً نحو غرفة الجلوس، كانت يدها لا تزال تؤلمها، لكن إحساسها بالتناقض الرائع بين رقّة لمساته وقوة ذراعيه وهو يلفهما حولها كأوراق زهرة توليب هشّة، أخذها إلى فردوسٍ خلّاب من العشق، حيث لا حزن ولا ألم؛ مدّدها على الأريكة وجلس أرضاً إلى جانبها محتضناً يدها بكل حب، وهو ينفخ عليها ليخفف عنها الألم، تجاوزت أنفاسه جلدها الملتهب، لتنفذ إلى قلبها مثيرةً عواصف من الغرام والهوى، بيدها الأخرى سحبت يده اليمنى

ولثمتهـا بحبٍّ وطاعة ثـم رفعتها نحو جبهتها لتؤكد على تقديسـها له..

ـ أحبكَ يا أغلى زوج في الوجود.

رفع يده نحو شعرهاً الداكن لتسبح أصابعه بين تموجاته الرقيقة وهو يبثها حناناً يكفي الدنيا بأسرها..

ـ وأنتِ كلّ حياتي.

وكما في الأسـطورة بدأ رجـل الرمل يكوِّم رمالـه على أجفانها ليثقـل عينيها بنعاسٍ لا يُقـاوم، حاولَت أن تبعد شـبحه عنها وتبقى مستيقظة، فلِمَ تذهبَ إلى عالم الأحلام وواقعها أجمل منه؟! لكنها لـم تتمكن من مقاومة رمـال النعاس وهي تطبـق أجفانها بالكامل، وهي تتمتم بصوت نائمٍ غير مسموع:

ـ الطعام....

.....................

الكلمـة ذاتهـا هتفـت بها وهـي تهبّ قافـزةً عن الأريكـة، وقد أيقظتهـا رائحة الطعام المحـروق التي أغرقت البيـت كلّه، أو لعله صوت رنين الهاتف ما أيقظها؟ تجاهلت الهاتف وهي تعدو مسرعةً نحو المطبخ لتخمد الغـاز عن الطعام الذي كان قد تفحّم تماماً، ثم عادت راكضةً مرّةً أخرى نحو الهاتف، وشـتيمة صغيرةٌ تتسرب من بين شفتيها، فتحت الهاتف فجاءها صوته العميق:

ـ حبيبتي أنا آسف، اضطررت للنزول مسرعاً لشأن ضروريٍّ طرأ في العمل، كيف حال يدكِ؟

ردّت بصوتٍ منزعج

ـ يدي بخير، لكن الطعام احترق تماماً!

صـوت ضحكةٍ عاليـةٍ وصلها من الطرف الآخـر، أردف مروان بعدها قائلاً:

ـ لا بـأس عزيزتي، أنـا على كل الأحوال سـأتناول غذاءً هنا في المطبعـة، أمـا أنتِ فمـا رأيك فـي أن تتناولي الطعام على حسـابي فـي مطعم البيتزا الـذي تحبينه؟ وفي طريقك لهنـاك بإمكانك أيضاً المرور على الصيدلانية القريبة من منزلنا لتلقي نظرة على يدك.

ـ لكنني كنت أريد أن أعدّ لكَ وجبةً شهية! (قالت بنبرةٍ شاكية)

ـ سـأغيظك بشـأن هـذا الموضـوعِ طـوال عمرنـا (ضحك ثم استـأنف) الأيام كثيرة وسـألتهم مراراً يديك ومـا تطهوان (صمت ثانيـةً ثم عقَّب بخبث) وأكثر من يديكِ أيضـاً (صوتٌ إلى جانبه بدا كأنـه يوجـه له حديثاً ما رد عليه بخفوت سـآتي حالاً ثـم عاد إليها) حبيبتي يجب أن أذهب الآن، أحبك، سلام.

ـ مع السلامة حبيبي.

أنهت المكالمـة ونظرت إلى يدها بغيظٍ لدقائـق ورائحة الفحم تغمرهـا، فتحت النافذة طـاردة الرائحة المزعجـة، وتوجهت نحو غرفتها لتغيير ثيابها وهي تمتم لنفسها:

ـ سأهتم بالفوضى عندما أعود.

أنثر رماد النوم على عيوني أنهكها طول السهاد، لأحصد تلك البسمة العصية على المنال، في أتون مشاعري المستعرة أسبك قيداً من شوق خالص، وأصطاد به معصم ذلك الحلم البعيد، فيستحيل القيد سراباً ويحلق الحلم بعيداً في سماء أمنياتي المستحيلة.. أنا.. أحلم بك.

# الجلسة الثانية

# أحلام

## (١)

ـ صباح الخير..

قالتهـا ياسـمين لمجموعتهـا الصغيرة وهي بالكاد تمنع نفسـها عن التدقيق، فيما تحتضن نسـرين التي كررت جلستها على الأرض إلـى جانب النافـذة، إلا أنه لم يكن كراسـها ما يربـض بهدوءٍ على ساقيها اليوم، فعوضاً عنه استقر على حضنها شيءٌ ملفوفٌ بإحكام؛ تجاوزت فضولها ووزعت ابتسـامتها بالتسـاوي على الجميع وهي تلاحظ: عاد قيس للجلوس في الزاوية المعتمة، جلنار جلست على الكرسـي المقابل لها تماماً، أما سوسن فقد اختارت كرسياً قريباً من جـوري، في حين كانت تلـك الأخيرة تبدو مذهلـةً بجمالها الباهر الـذي يبرزه فسـتانٌ أحمرٌ بلون الورود، يبدو أن اسـم جوري يروق لها فكرت ياسمين وهي تُحكِم وضع حجابها الأزرق حول وجهها، شـيءٌ ما في أنوثة جوري يجعل أي امرأةٍ أخرى تذوي، بتَرت حركة يدها القلقة بسرعة، مسيطرةً على مجرى أفكارها.

ـ اليوم يومٌ مشمسٌ جميلٍ، شمس الشتاء تذكرنا بدفء ربيعٍ قريبٍ مقبل، لتمنحنا فسحةً أكبر للحلم والأمل، نعم ربما نعاني الآن من ارتجافنا تحت وطأة برد شتاء الوحدة في قلوبنا، لكن دفء الأحلام يحفظ ذكرى الربيع، أملاً بغدٍ مشرق؛ لهذا طلبت من كلٍّ منكم أن يفكر في أحلامه؛ من يحب أن يبدأ الكلام ويحكي لنا عن حلمه؟

في جلسةٍ متكبرةٍ مرتاحة، وهي تلفُّ إحدى ساقيها على الأخرى بطريقةٍ أرستقراطية، فيما يلمع حذاؤها الأسود الكلاسيكي بتعجرف، وسلسلة المفاتيح تتراقص بين أصابعها برتابةٍ مستفزّة، استهلّت جلنار الحديث من وراء نظارتها الشمسية «السينييه»:

ـ السلام والأمن في بلادنا، العدالة الاجتماعية، بالإضافة لحدٍّ أدنى للأجورِ هو ما قد.....

وقبل أن تكمل كلامها قاطعتها جوري بلكنةٍ ساخرة:

ـ و تذهب جائزة سيدة اللباقة «Miss congeniality» للسيدة «جلّناغ»..

ودون أن ترفع نظارتها رمتها جلنار بنظرةٍ ناريةٍ حارقة، ولأوّل مرةٍ ذاب جليد صوتها، وهي تكاد تبصق الحروف من بين أسنانها:

ـ من أنتِ لتكلميني بهذه اللهجة؟!!

وقبل أن ترد عليها جوري، عاد الجليد يتكتّل على نظرتها وهي تشيح وجهها مستأنفةً:

ـ ما دمتِ لمّاحةً لهذه الدغِجة... دعينا نستمع لحلمك!

أصبح الجو مشحوناً بدرجةٍ مزعجة، لذا واجتناباً لمصادمةٍ قويةٍ متوقعة تدخلت ياسمين بصوتٍ صارم:

ـ شكراً لك يا جلنار على مشاركتك حلمك، جوري، سأقدّر لكِ كثيراً تركَكِ الآخرين يعبرون عن نفسهم بحريةٍ وبشكلٍ كامل دون مقاطعة (وقبل أن تسمح لجوري بالتعقيب عليها أكملتْ) والآن لم لا نستمع لقيس؟

انتفض قيسٌ وهو يسمع اسمه، مدركاً الأضواء المسلطة عليه، فقد اتجهت له كل الأنظار، تسبر أغوار الظلال القاتمة التي احتمى بها، في حين شغلت جوري نفسها بإشعال سيجارة، متجاهلةً لافتةً «الرجاء عدم التدخين» المعلّقة على باب العيادة، أو ربما في محاولةٍ متوقعةٍ منها لتحدي اللافتة.. ومن وضعها.

ـ ما هو حلمك يا قيس؟

جاء صوت ياسمين رقيقاً مشجّعاً؛ أطرق قيس رأسه ليتحاشى النظرات المسلّطة عليه، وبدأ الكلام بصوتٍ هادئ، ونبرة الحزن لا تفارق صوته:

ـ على مدى اليومين السابقين، فكرت كثيراً في سؤالك دكتورة ياسمين، ليست المشكلة في الأحلام طبعاً (مرر يده في شعره بحركةٍ متوترةٍ ثم تابع) أنا لي عادةٌ يوميةٌ، فلا يبدأ يومٌ لي إلا بساعةٍ أو أكثر من الغرق في أحلام اليقظة، لتكون صورة روان وصوتها أول ما أبدأ به يومي؛ أحلم بها تعود لي، تنبئني بأنها كانت تختبرني، وبأن خبر خطوبتها كان كذبةً لا أكثر، أحلم أنها أدركت بأن الحياة من دوني مستحيلة وأن أحداً في الدنيا لن يتمكن من منحها عُشر الحب الذي كنت لأغرقها به، أحلم بساعاتٍ من المناجاة الهادئة وأحياناً.. (بسط كفه أمام ناظريه متأملاً) أحياناً أحلم بيدها تستقر بأمانٍ بين يدي..

لكن سؤالكِ لم يكن عن أحلامنا اليومية، فقد سألتِ يا دكتورة

عـن أبعد الأحـلام وأكثرهـا عمقاً بداخلنا، سـألتِ عن شـيءٍ أكبر وأعمـق من أحلامي تلك، بحثت كثيراً في ذاتي هل أتمنى عودتها؟ نعم أكثر من أي شيءٍ آخر في الدنيا، لكن... لكنني أعلم أنها سعيدة، ولن يكون حلمي أبداً أن أحرمها من سـعادتها تلك (تسـللت غصةٌ إلى صوته فصمت قليلاً كأنما ليتمالك نفسـه) حلمي... حلمي هو أن أسمع صوت ضحكتها يطرب الوجود، أن أنهل رحيق سعادتها، رشـفةٌ واحدةٌ من نهر سـعادتها هي كل ما أبغي، لتشرق الشمس في سـماء روحي المعذبة، فقد أرهقني صقيـع فراقها! (رفع عينيه نحو ياسمين ودمعةٌ شريدةٌ تحاول جاهدةً الهرب من بين جفنيه) حلمي: ضحكة روان.

شيءٌ ما بداخلها ارتعش لمرأى نظرته الحزينة، فيما سبح صوته داخل أعماقها، ساد صمتٌ كليٌّ في الغرفة، صمتٌ ينعي روحاً تصارع الموت الوشيك بكل إباء؛ لتهرب من فيضان المشاعر التي اعترتها حوّلت ياسمين ناظريها نحو نسرين:

- نسرين هل لكِ أن تحدثينا عن حلمكِ اليوم؟

وابتسـامتها الرقيقة تكلل وجهها الطفولي الرقيق، نظرت نسرين لياسـمين بسـعادةٍ وهي تفك اللفة التي كانـت تحتضنها، ثم رفعتها بفخـرٍ ليراهـا الجميع؛ كانت لوحـةً خلابةً بالألـوان الزيتية، امتزج فيها الضوء وتراقصت الألوان لتملأ نفسـك تفاؤلاً وسعادة، فمهما تشـبثت نسـرين بصَمتِهـا، إلا أن لوحتها بلا شـكّ كانت تصوغ من الأحاديث ما يعجز عنه أمهر الخطباء، فتسـري ألوانها داخل نفسك كالسحر طارقةً كلّ أبواب روحك، لتخاطب داخل نفسك زوايا أنت نفسـك لم تكن تدرك وجودها، في ذلك السحر الغافي على خلفيةٍ زرقاء حالمة، تسـبح ستّ زهرات بأجنحة كالفراشات تتشارك ساقاً

واحدة ترتفع بشمم على الأمواج الداكنة المتلاطمة، وفي قلب كلّ زهرةٍ شعاعٌ من ياقوتٍ أحمر؛ تتناثر ثمارٌ واعدةٌ على أكف بعض الزهرات في حينٍ ترمي الشمس أشعتها الصفراء لتعانق بها شموخ النبتة القوية، لوحةٌ نحاسيةٌ صفراء استقرت على الإطار لتلتمع عليها بهدوء كلمةٌ واحدة «حلم»؛ أحسّت ياسمين بأن اللوحة مألوفةٌ جداً أحسّت أنها تذكرها بشيءٍ أو شخصٍ ما، لكن عبثاً حاولت التقاط حبال ذكرياتها، من يدري ربما كانت نسرين رسامةً مشهورةً سبق لها أن زارت أحد معارضها، استراحت أفكارها لهذا التحليل فيما لفّت نسرين اللوحة بعنايةٍ وأراحتها على ركبتيها، وابتسامةٌ حنونةٌ تزيّن وجهها، كأمٍ تهدهد صغيرها لينام.

ـ أظن بأنه قد حان دوري الآن!

قالت جوري بصوت مثقلٍ بالأفكار، طلاء شفتيها رسم خطّاً واضحاً على ورق السيجارة التي أخذت تحركها بين أصابعها بهدوء، عيناها سابحتان تماماً في خيوط الدخان المتسربة من بين شفتيها بصمت، شيءٌ ما في نظرتها استوقف ياسمين، وكأنها بنظرتها تلك كانت تغزل صوراً لتشكّل بها عرضاً مبسطاً عن سراب الذكريات التي تطبق على أنفاسها، لتخرجها في زفراتٍ طويلةٍ عميقةٍ ملوّثةٍ بالألم؛ حبست ياسمين اختناقها من سحب الدخان البيضاء، وغاصت أكثر في دراسة هذه المخلوقة الفاتنة الجالسة على كرسيها بهدوءٍ مصطنع، نعم دخان سجائرها كان خانقاً لكنه كان يضفي عليها طابعاً من القدسية والرهبة، كسحب البخور في معبدٍ هندوسيٍّ قديم.

ـ لطالما عاملوا قلبي كقبائل الغجر، كلما طابت له أرضٌ وغرس جذوره ليعانق ترابها بعشقٍ أبدي، طردوه منها بقسوة، لطالما مزقوا

جـذوره وأحرقوهـا خوفـاً مـن أن تنبـت أحلامه فـي قلوبهـم مرّةً أخرى، لطالما اكتوى بنيران قسوتهم، لطالما لدغته سياط تعابيرهم و«تبريراتهم» حتى قرر أن يتعايش مع واقعه كقلبٍ غجري، فنبذ كل الأراضي وقرر أن يحيى لذاته فقط!

أنـا جوري، غجرية القلـب.. أزور كل القلـوب، ولكن لا قلب يحتوينـي، كل القلـوب تـذوب فـي دبيـب رجلـيَّ علـى أراضيها العجفاء، وأختصر الدنيا برعشةِ الألوان المتلألئة على طرف تنورتي المزركشـة، تحـاول أصابعهم أن تلمسـني بنهم، لكنهم يمسـكون خواء جوعهم، ليس لأحدٍ أن يطول السراب.

حلمي يا ياسمين رجل، رجلٌ حقيقيٌّ تستطيع رجولته أن تضاهي قوتي وجبروتي، رجلٌ قادرٌ على احتواء بركان أنوثتي وعنفواني دون أن يهرب بعيداً خوفاً من طوفاني؛ أليس هذا ما تحلم به كلُّ امرأة؟

تناثر رماد سيجارتها على أصابعها دون أن تعيره اهتماماً وهي تنظر للفراغ.

قاهـرةً جبال الخجـل الجاثمة علـى ملامحها، هتفت سوسـن بإعجـاب واللون الأحمـر يتصاعد ليغطي مسـاحة وجهها الجميل الممتلئ كاملةً:

ـ حلمي أن أكون جميلةً مثلك يا جوري!

ضحكـةٌ سـاخرةٌ ندّت عـن جلنار، أعادت سوسـن المسـكينة أسـيرة أحبال خجلها وضعفها، لتطرق رأسها خجلاً دافنة يديها بين ركبتيها، أما جوري ففي عينيها أرعدت سحابةُ غضبٍ عاتٍ، ابتلعته مع نفسٍ أخيرٍ من سيجارتها، كتمته لدقائق ثم ردّت بهدوء:

ـ هـذا فقط لأنكِ تنظرين لنفسـك من خلال مـرآة الآخرين، لو تعلمـت كيـف تنظرين لنفسـك مـن خلال مـرآة ذاتـك، لوجدتِ الجمال الحقيقي.

ران الصمت مجدداً، وحان لياسمين أن تنهي جلستها، كانت جلسةً دسمة فكرت في نفسها وابتسامة رضى تنير وجهها فيما أخذت ترسم إشاراتٍ متفرقة على دفتر ملاحظاتها، هي لم تختر الموضوع عبثاً أو لمجرد زرع التفاؤل، اختارته لأن حديث المرء عن أحلامه وأمانيه يذيب أكثر حواجزه وموانعه، ليفتح لها الطريق رأساً إلى مركز ذاته، وعلى الرغم من مقاومة جلنار التي ظلّت صامدةً في مخبئها داخل صدفتها الذهبية، إلا أن نتائج اليوم كانت مرضيةً جداً؛ وضعت قلمها جانباً وبدأت الكلام لتنهي ثاني جلساتها:

ـ أحلامنا هي أحلامنا كبرت أو صغرت، سواء اتّسمت بالبساطة، الرومنسية، أو بالإغراق في الخيالية، ففي النهاية ما هي إلا طريقةٌ لنملأ بها صفحاتٍ لم يكملها القدر، أو أننا نجعلها جسراً خيالياً فوق عثراتنا.

في استكشاف أحلامكم اليوم تمكنتم من استكشاف أحاسيسكم ولذا، في الجلسة القادمة أطلب من كلٍ منكم أن يعرض على المجموعة الوجه الآخر للعملة، ستتحدث عن أشد عثرات حياتنا ألماً، العثرة التي ـ غالباً ـ لم نتمكن من تجاوزها حتى الآن، والتي دفعتنا للالتجاء إلى مجموعتنا هذه.

أشكركم على مشاركتكم ووقتكم، موعدنا بعد ثلاثة أيام في نفس الوقت المعتاد.

وفيما يغادرون الواحد تلو الآخر، تراءت لياسمين ذكرى صورة الجليد الذائب عن نظرات جلنار وهي ترمق جوري بغضب قاتل، ابتسمت بخبث، نعم كان خيارها موفقاً، فجوري هي الوحيدة القادرة على كسر صدَفة جلنار، هذا التناقض القاتل بينهما سيكون له القدرة على تمزيق كل الحواجز النفسية لكلٍ منهما؛ أومأت رأسها مصدقةً على أفكارها ثم نهضت حاملةً مطفأة السجائر الممتلئة بالرماد إلى مطبخ العيادة.

## (٢)

وكأنما كانت تنتظرها وراء الباب، ما أن وصلت أمام باب شقتها الواقعة تحت شقة ياسمين مباشرةً حتى فتحت الباب وأطلّت برأسها.

ـ دكتورة ياسمين، أودّ التحدث إليكِ.

منحتها ياسمين ابتسامةً لطيفة وهي تقترب منها.

ـ مدام سعاد! حمداً لله على سلامتكِ، سمعت بأنك كنتِ متوعكةً قليلاً خلال الأيام الماضية، أنتِ الآن بخير؟

بدى الاستغراب التام، بل الذهول على وجه السيدة سعاد وهي تقوّس حاجبيها الأسودين، ليزيد تقوسهما وجهها حدّة مما منح وجهها القاسي شكلاً أشدّ شراً.

«سيماهم في وجوههم» تفسيرٌ منطقيٌّ جداً للطريقة التي اختار فيها الخالق سبحانه أن ينحت فيها سحنة هذه المرأة، دوماً ما ترى خيالها خلف نافذةٍ ما، أو تحس بأنفاسها كتنين رابضٍ خلف شقٍ في جدارٍ أو ثقبٍ في باب، تتلصص على الجميع بحثاً عن ثغرةٍ

تنفذ منها إليهم، إلى حياتهم، وتحديداً إلى سعادتهم، لتحقن فيها حقدها وسوادها وشرورها؛ دوماً تقبع في الظلام، تسجل ملاحظاتها لتتقيأها لاحقاً سيلاً من النميمة والمشاكل؛ وجهها كان يشبه الساحرات في أفلام الأطفال، عينان مائلتان جاحظتان بلونٍ رصاصيٍ مبهم، حاجبان عريضان أسودان بتقويسةٍ حادّةٍ مخيفة، أنفٌ مقوّسٌ بغيض، ولا بد من الشامة السوداء لتخفي فيها جعبة لؤمها.

تقوُّس حاجبيها الزائد ما كان إلا بسبب لطافة ياسمين معها وسؤالها عن صحتها، هي لطافة صادقةٌ لم تتعود عليها، فعلى الرغم من تقرّب الكثيرين منها، إلا أنه كان تقرباً مزيفاً بدافع الخوف، أو ردّ الشرور ودرء المشاكل.

طردت سعاد استغرابها وتجاهلت سؤال ياسمين تماماً، وبادرت في غزل شباك مشاكلها محاولةً اصطياد الفراشة الجديدة التي لم يكد يمضي على وجودها في العمارة شهرٌ واحد، فبادرتها بصوتها الحاد المستفز:

ـ دكتورة ياسمين، عودتكِ متأخرةً بعض الأيام وخروجك غير المنتظم يثير الشبهات من حولكِ وقد يتهمك البعض بألفاظ قد لا تصل لكِ، لكنها تصل لنا وتمس عمارتنا بأسرها.

ذُهلَتْ ياسمين من صفاقة هذه المخلوقة الواقفة أمامها، فغرت فاها لثوانٍ ثم تواترت الكلمات على شفتيها بعصبية مضطربة:

ـ بأي حق!.. ما الذي!.. ما صفتكِ لتكلميني بهذه الطريقة؟!

ـ أنا جارتكِ وسمعتك تؤثر علي.

قالت سعاد وهي ترفع رأسها بكبرياء أحمق.

ارتفع صوت ياسمين تدريجياً وهتفت وهي تحس بجسمها ينتفض من الغضب:

ـ لا شأن لكِ بي أفهمتِ؟!!!

ثم استدارت لا تلوي على شيء وتسلقت باقي درجات السلم نحو شقتها مبتعدةً عن هذه السيدة المجنونة، فيما كان صوتها المنفر يلاحقها بلهجةٍ كانت لتستفز ناسكاً ليتخلى عن نسكه ويصفعها:

ـ لا تقولي إني لم أحذركِ! كلام الناس لا ينتهي يا.... دكتورة.

# (٣)

كان جسمها ينتفض من الغضب وهي تغلق الباب خلفها بعنف؛ لقد نجحت هذه الكائنة الطفيلية في إفساد يومها!

لا، لا وألف لا! أمثالها من علقات المجتمع البغيضة لن يكون له أن ينفذ إلى روحها المفعمة بالسعادة والرضى، أمثالها ليس لهم أن يثيروا في نفسها إلا الشفقة، فهيَ ليس لديها قلبٌ عاشق يملأ حياتها نوراً وبهجة، ليس لديها قيس!

«قيس؟ لا لا لا لا أقصد مروان!»

ضايقها الخلط في الأسماء كثيراً واستفزّ مشاعرها؛ أخذت تبدّل ثيابها بسرعةٍ وهي تحل الضفيرة العنيدة عن شعرها بصبرٍ نافذ، وبكل مهاراتها في علم النفس، تمكنت من أن تجرّ ذاتها بعيداً عن معركةٍ نفسيّةٍ أوشكت على أن تخوضها.

ارتدت له ثوباً زهرياً رقيقاً، يُظهر كل ما يعشق من ثنيات جسمها وانحناءاته، فيما تتراقص عقدةٌ بنيّةٌ بدلالٍ طفوليٍّ على صدرها

المكشوف، لتمنحها ذاك المزيج المغري ما بين الأنوثة والطفولة؛ هو يحب اللون الزهري، فهو اللون الذي رآه عليها أول مرة، ارتسمت على شفتيها بسمةٌ وهي تذكر رقصتهما السريّة، كانت رقصةً على الملأ! إلا أن أحداً غيرهما لم يرها أو يحس بها.

يومها كانت تشعر بالملل وهي تنتظر في بهو أحد الفنادق، ليست تذكر سبب انتظارها بالضبط، كان سبباً متعلقاً بمعرضٍ فنيٍّ ما... المهم أنها في غمرة مللها لمحت بيانو قديماً قابعاً في إحدى الزوايا، أغراها الخشب البنيُّ المصقول والأصابع البيضاء اللامعة لتجلس إلى الآلة الصامتة، بدأت أناملها تداعب لوحة البيانو برقّة، وانساب لحن «la fleur sauvage» في البهو بحزن؛ الزهرة البريّة وحدها وسط عواصف الشتاء، تقاوم بألم قسوة الثلج والصقيع، لتنتهي المقطوعة بالزهرة الصغيرة الرقيقة، متجمدةً بين الثلوج، والدنيا تغني من حولها بقسوة، أغنية روح ماتت وحيدة.

تصفيقٌ من بضعة نزلاءٍ كانوا قد التفوا حولها مبهورين بأدائها المتقن لمعزوفة «Richard Clayderman» الشهيرة؛ الخجل كان يأكل وجنتيها ليمنحها لوناً يتماشى مع الشال الرقيق على رأسها، وتنورتها الحريرية الأنيقة.

وقبل أن تنهض من على البيانو، أحست به يجلس إلى جانبها، عيناه الداكنتان تطِلّان عليها من خلف حاجبين رجوليين كثّين، جبهته العريضة والنظارة الطبية كانتا تمنحانه هيئة مفكّرٍ عبقري، فيما كانت ابتسامته الطيبة تغزوها، لتمنحها إحساساً عارماً بالثقة والأمان وهو يسألها بصوتٍ آسر:

- تُجيدين «marriage d'amour»؟

أحسَّت برائحة عطرٍ خفيفةٍ تختلط بأنفاسه الحارَّة لتغزو روحها،

كان عليها أن تبتعد، أعطى عقلها الإيعاز بسرعةٍ وقلق، إلا أنها وجدت نفسها تهزّ رأسها موافقةً كالمسحورة.

بدأت أصابعه ترقص على لوحة البيانو برشاقة، أومأ لها برأسه لتشاطره المعزوفة؛ «marriage d'amour» زواج حب، معزوفةٌ تملؤك تفاؤلاً وسعادة، فيما تتابع طبقتان صوتيتان في اللعب على أوتار قلبك؛ رجلٌ وامرأة يرويان للدنيا قصة حبٍ لا ينتهي.

أصابعه كانت تراقص أصابعها برشاقةٍ وخفّة فيما تغمرهما الألحان المتكاملة بتناغم عجيب، تلاحقت أنفاسها، ولم تكن المعزوفة هي السبب، بل كانت سرعة وقع دقات قلبها على لحنٍ آخرٍ بدأ يغزو روحها؛ ومع نهاية المعزوفة، ارتاحت أصابعه على أصابعها، نظرت له فإذا بعينيه تبدآن رقصةً أخرى صامتة، وفيما كان الجميع في البهو يرمقهما بانبهارٍ واهتمام، كانت عيناه تراقص عيناها رقصةً لا يراها أحد، فيما تشابكت روحاهما في عناقٍ لا زالت تستمتع به حتى اليوم.

«تشربين كوباً من الكاكاو؟»

ذكرى البدايات دوماً هي الأقرب إلى نفوسنا، نمارس عادة إعادة شريط الذكريات، علّنا نتمكن من اصطياد السعادة ذاتها مجدداً.. نجْترُّ أحاسيسنا بهدوءٍ ممزوج بكافة أصناف المشاعر، فالذكرى تجرحنا وتُفتّت روحنا عندما ترتبط بالفراق والوحدة، لكن، عندما نغرق في ذكرياتِ حلمٍ لا نزال نعيشه، ذكريات حبٍّ لا زال يغزل مواويله على شرفات سمرنا، عندما نتذكر أول نظرة، أول بسمة، أول رقّة قلبٍ ونحن ندرك تماماً أنها نقطةٌ في بحرٍ نستغرق فيه بثقةٍ واستمتاع، عندما نؤمن أن تلك الذكرى ليست إلا مدخلاً إلى السعادة الأبدية، عندها، تصبح الذكرى فراشةً تحمل روحنا

على جناحيها وتطير بنا نحو السحب البعيدة، لنجد أنفسنا نطوف في حالةٍ ممتعةٍ بين الواقع والحلم.

تنهيدة سعادةٍ هربت من بين شفاه ياسمين وهي تنتهي من تحضير الغذاء، نظرت إلى ساعتها، لقد تأخر! لا بأس ستفاجئه، سيدخل من الباب ليغرق في لحنهما، ستختطفه الذكرى وترميه في أحضان حبهما ليستعيد ذكرى أول رقصة، ومن يدري، ربما تراقص أصابعه أصابعها مجدداً؛ طبعاً كان في بيتهما بيانو، في الواقع، كان البيانو أول قطعة أثاثٍ تدخل إلى المنزل لتستقر بثقةٍ وكبرياءٍ في غرفة المكتب.

جلست إلى البيانو وثوبها الزهري القصير يرتفع حتى منتصف فخذيها، ابتسمت ابتسامةً ماكرة، «قد لا نرقص هنا، فنرقص في غرفةٍ أخرى وعلى لحنٍ مختلف»؛ أغمضت عينيها لثوانٍ مستجمعةً تركيزها ثم بدأت رحلة الغرق في اللحن السعيد الرقيق؛ «marriage d'amour» هذه كانت نعمة الله عليها، البسمة كانت ترصّع وجهها، والألحان تنساب من تحت أناملها، نفس اللحن، نفس الأصابع مع فرقٍ بسيطٍ جداً، متمثلاً في خاتم يلمع باستكانة على بنصرها الأيسر ليذكرها بأنها ملكت السعادة الأبدية، هو ملكها الآن وهي ملكٌ له.

انتهت المعزوفة بسرعة، لم يأتِ بعد، لا بأس.. ستعزفها مجدداً، عزفتها مرةً أخرى، وأخرى، وأخرى... لقد تأخر كثيراً!

هربت البسمة من روحها، وبقي أثرها على شفتيها متصنعاً كاذباً، «اشتقت له» وخزةٌ غـزَت قلبها حين أدركت أنها ما عادت تعزف «mariage d'amour» إنما كان لحن «la fleur sauvage» يغمرها كلياً، الوردة الوحيدة الحزينة في برد الشتاء..

لكم تودّ لو تحضنها، تمنحها كل دفئها وحنانها حتى يعود لها الربيع، لا تحزن يا قيس! لا تحزن!

صورة وجهه الحزين الغارق بين ظلال العتم وذراعاها تحتضنانه بحنوّ، كانت صورةً أرعبتها! نشازٌ تسلل إلى المعزوفة وأصابعها تتعثر على لوحة البيانو، وَأَدَت الصورة في مخيلتها بسرعةٍ والدم يتصاعد إلى وجهها في خليطٍ من الشعور بالذنب والغضب؛ طبقت غطاء البيانو بعنفٍ أنّت له أوتار الآلة بصوتٍ حزين، نظرَتْ للساعة نظرةً غاضبةً وذهبت إلى غرفتها، اندسّت بين أغطية سريرها ونامت وهي تحاول ألا تفكر، ألا تحلم حتى.

ينفرط عقد الآهات حبةً حبة، وتعوي كِلاب ألمي مُطاردةً قوافل اليأس، دموعي تصطف في موكب مهيب لتشيّع ما قد كان، ليسجل تاريخي تلك اللحظة، أشد لحظات عمري ألماً.

## الجلسة الثالثة

# أشدّ اللحظات ألماً

# (أ)

ابتسـامةٌ غريبةٌ ارتسـمت على وجههـا منذ دخولها، ابتسـامةٌ.. لسـببٍ ما تُشـعركَ بالصقيع يغـزو أوصالك ويُجمِّد كل مشـاعرك، لتشيح ببصرك عنها مسرعاً بينما تقشعرُّ مسام جلدك كلها!

جلست كعادتها على الكرسي المقابل لياسمين، ليست وحدها، بل كلٌّ منهم كان يضع بصمته الشخصية بالعودة لكرسيه المعتاد، في محاولةٍ لرسم حدود «وطنه» شاعراً معه بالانتماء والتفرُّد، وهنا يكمن دورها، لتقرأ روتين عاداتهم البسيطة تلك وتنفذ من أبسط اختياراتهم وتصرفاتهم إلى الكثير والكثير مما يتربّص مختبئاً في عمق نفوسهم.

ـ اليوم سيكون يوماً مشحوناً بالعواطف؛ فبعد أن نظرنا للجانب المضيء، لا بد لنا من أن نلقي شيئاً من الضوء على الجانب المظلم؛ اليوم نتحدث عن أشد لحظات حياتكم ألماً وحزناً.

مـع تلـك الكلمـات غرق قيـسٌ في مقعـده محـاولاً أن يمتزج

بالظـلال الداكنـة المحيطـة بـه، بأصابـع متوترة أخرجـت جوري سيجارةً جديدةً من علبتها فيما كانت واحدةٌ أخرى تنتظرها مستندةً إلى مطفأة السـجائر باستكانة، تسـتعر بانتظار لمسةٍ من شفاهٍ مطليّةٍ بوقاحة، شفاهٍ نسيت وجودها تماماً.

وقبل أن تسترسل ياسمين في تفنيد ألم السيجارة المهجورة، شدّ انتباهها حركةٌ ندّت عن جلنار، إذ فتحت حقيبتها الجلدية الثمينة لتخرج منديلاً حريرياً مطرّزاً، أخذت تمسح به دمعةً وهميةً من على خدها، عاقدةً حاجبيها وهي تذرف كلماتها الحزينة بأداءٍ مسرحيٍّ زائف:

ـ أسوأ أيام حياتي كان يوم فقدت المغحوم زوجي ـ غحمة الله عليه، لا أظن أنني سأتمكن من تجاوز تلك الصدمة طوال حياتي! ولن يزول ألمي وحزني مدى الدهر!

ماذا تخفي جلنار وراء هذا القناع الجليدي؟ أي مشاعر صَلَبت هذه الروح بشناعةٍ وقسوة؟ وقبل أن تحاول ياسمين الضغط عليها لتسبر أغوار اللغز المتجمد أمامها، ارتفع صوت جوري غاضباً متوتّراً:

ـ باللـه عليـكِ كفاكِ زيفـاً! كلٌّ منا يصـارع ألمـه، لتجيئي أنتِ بأدائك السـخيف هذا تنتظرين به تصفيقـاً من معجبين خياليين! من تحسبين نفسكِ؟!

بدهشةٍ مصطنعةٍ شهقت جلنار وهتفت:

ـ أنا!!! ماذا تقصدين؟

ـ أقصد بأنك كاذبة، وممثلةٌ فاشلةٌ أيضاً، ربما يكون هذا عاملاً مشتركاً بين من هم مثلك.

ومع تلك الكلمات انكسر قناع الجليد..

بريقٌ ناريٌّ التمع في عيون جلنار، فيما تقوّس حاجباها بقسوةٍ ذكّرت ياسمين لسببٍ خفيّ بوجهٍ قاسٍ كان قد أثار حفيظتها منذ بضعة أيام، وجه جارتها سعاد؛ أبعدت صورة الوجه البغيض عن مخيلتها وهي ترى الشفتين المتغطرستين تلتويان في ابتسامةٍ ساخرةٍ وهي تردّ بصوتٍ مطليٍّ بأعلى درجات الزهوّ والغطرسة:

ـ من هم مثلي؟!... من هم مثلي هم من تقضين عمغَكِ كلّه دون أن تصلي لاستجداء نظغَةٍ واحدةٍ منهم! مهما لبستِ من ألوان فاقعةٍ وثياب غقيعة!

من هم مثلي.. لا يشغلون حتى الحيّز ذاته الذي تشغلين، بهيئتكِ الغخيصة وإسفافِك المقزّز، أقصى اهتمامٍ قد تنالينه ممن.. «هم مثلي».. هو أن نَنُشّكِ كالذباب وأنت تحومين حولنا.

وقبل أن ترد عليها جوري قاطعتها بحركةٍ متعاليةٍ من يدها:

ـ انتظغـي.. انتظغي! هذه المغّة أنا حقاً سـأتنازل، وسأستسـلم لفضولي.. لأسمع منكِ ما الذي فقدتِه يا عزيزتي «ضحكت ضحكةً قصيرةً مدروسـةً وتابعت ترمـي كلماتها ببطءٍ متعمّـد: «أكان حبيباً قاسـياً امتصّ غحيقك كلّه وغِماكِ وغِقة سـيلوفانٍ تافهةٍ على قاغعة الطغيق؟

هنا جاء ردُّ جوري الذي لم يكن بأقلّ متعةٍ من كلمات جلنار الكاوية:

ـ أنتِ يا عزيزتي، أنتِ وأمثالكِ من يُرمى جانباً، إناءً خزفياً فارغاً مكسوّاً برسوم منمّقةٍ ممهورةٍ بإمضاء فنانٍ شهير، فيما يحدّثنا رنينه العالي في صالونات المجتمع، عن كمية الفراغ الهائلة بداخله؛ من الطبيعي جداً أن يلقوا بكِ جانباً، فأنتِ لستِ إلا جمادا، أما أنا.. فأنا حياة! لن أغضب منكِ، ومن كلماتك، فأنتِ مسكينةٌ بحق،

أسيرةً لأوامرهم، وأفكارهم، وتوقعاتهم، ومعتقداتهم، وإن فكّرتِ يوماً أن تعيشي لحظة حريةٍ أو عفوية، يصلبونكِ عاريةً على جدران اتهامهم وتهكّمهم؛ تهربين دوماً من نور عواطفكِ وتختبئين في سراديب النميمة، لتخرج كلماتك القذرة ملوّثةً بدماء روح اغتلتِها منذ زمنٍ طويل، فالحرمان حوّلكِ لوحشٍ كاسر يحاول افتراس لحم الآخرين، لكن هيهات... فلحمكِ أنتِ هو ما تنهشين أولاً وآخراً.

حرّكت ياسمين قلمها بين أصابعها في توتّر؛ واجبها كان يحتّم عليها أن تتدخل وتوقف هذه المبارزة الكلامية المستعرة، فجلسات العلاج الجماعي هذه ما هي إلا أداة دعم، وُجِدت لتكون ملجأً من قسوة الحياة، لذا كان التعاطف بين عناصر المجموعة أحد أهمّ مقومات نجاح الجلسات!

لكن شيئاً بداخلها كان يمنعها من التدخل، شيطانٌ صغيرٌ كان يضحك مستمتعاً رافعاً أعلام التشجيع لجوري؛ فيما عللت هي لنفسها أن لا شيء قادرا على صهر جليد جلنار كنيران ثورة جوري المتأججة؛ وضعت قلمها جانباً وتابعت حركات جوري الهادئة، التي لم تكن بحالٍ من الأحوال تشبه غليان النار في عيونها، فيما كانت تأخذ نفساً عميقاً من سيجارتها، نفثت دخانها ببطء وأكملت:

ـ غريبٌ هو حال البشر، يتّهمون أقرانهم بما يُخفون داخلهم وبذلك يفضحون أعمق أسرارهم بأدقّ تفاصيلها، يشيرون بأصابع الاتهام نابذين الآخرين، فلا تشير أصابعهم إلا لهم ولعيوبهم.

التوت شفتاها بابتسامةٍ ساخرةٍ وهي تطفئ سيجارتها بقسوةٍ في علبة سجائرها وتستأنف:

ـ مثلكِ يا جلنار من يرميه «عشيقٌ ما» على قارعة الطريق.

ارتجفت شفتا جلنار وهي تضم قبضتيها في توترٍ ظاهر، مما

أرسل رسالةً فوريةً إلى ياسمين التي أزهقت الشيطان المسترسل في متعته ومجونه، وأشارت براحتها نحو تلك الفتاة الساكنة بهدوءٍ وادعٍ محاولةً جهدها ألا تسترخي، فتستند بنصف وزنها إلى أطراف أصابعها محاولةً أن لا تُرهِق الكرسي بوزنها كاملاً، شتتت ياسمين تركيزها وهي تتابع إشارة يدها وتقول:

ـ سوسن، ما رأيك أن تبادري أنتِ بالحديث، ما الذي يؤلمك؟

صوت أزيزٍ صدر عن خشب الكرسي وهو يئنّ تحت وطأة الوزن الذي أُسند إليه فجأةً، ارتفع الدم إلى وجنتي سوسن وهي تهرب بعينيها إلى حذائها.

وفي حركةٍ غير متوقعة، مدّت جوري يدها وربتت على ركبة سوسن وابتسامةٌ مشجّعةٌ تُزيّن وجهها، رفعت لها سوسن عينين شاكرتين، تبتسمان من خلف جدارٍ كتيمٍ من الدموع.

ـ شكراً.

ابتلعت دموعها ونظرت إلى ياسمين وبدأت الكلمات تتساقط من بين شفتيها كعقدٍ من شجن، انفرط لتتساقط حباته الحبّة تلو الحبّة في ايقاعٍ موسيقيٍّ حزين:

ـ آلامي كثيرةٌ يا دكتورة!.. آلامي.. في زاوية كل مرآةٍ أمرُّ بها مسرعةً كي لا ألمح انعكاس صورتي عليها؛ يا دكتورة آلامي في الصور الجماعية التذكارية، يجبرونني على أن أحشر نفسي فيها، فأختبئ خلف أكبر قدرٍ ممكنٍ من الأجساد المتراصّة، مخفيةً قبحي خلف جمالهن؛ آلامي يا دكتورة في الوقوف في الكافيتريا... أي كافيتريا أو مطعم منتظرةً أن يحضر لي أحدهم كرسياً يتسع لي ويحتمل وزني والأسوأ من ذلك يا دكتورة الأسوأ عندها، وأنا انتظر، شبه استحالة تجنّب نظراتهم، نظراتٌ ساخرةٌ تعقبها

همســاتٌ وإشاراتٌ بتّ أحفظها عن ظهر قلبٍ وأدرك معناها جيداً، نظراتٌ مشفقةٌ يا دكتورة، تقيس بحزن كمية الدهون المتراكمة على شــراييني، والشــحوم الثلاثيــة التي تهــدد حياتي، ونظرات شــفقة، تلغــي آدميتي يا دكتورة وتعترض على وجــودي؛ عندها أتمنى حقاً يا دكتورة... لو وُلدت عمياء!.

لم يكن الألم ينهمر من شفتيها فحسب، عيناها، تقاطيعها، بل حتى مسام جلدها كانت تنطق ألماً، كان الألم يحتلّ كيانها كليّاً فيما كانت تسترسل متقيّأةً سنيناً طوالاً من الكبت والعذاب، لامرأةٍ فقدت عذرية روحها منذ الصِبا على مذبح مقاييس مجتمعٍ بغيض، قرر أن يجرّدها من كل حقوقها الإنسانية، سالباً منها صفةَ «أنثى» واصماً إياها ليكون» تلك الفتاة البدينة» وصفها، سمتها، بل واسمها أيضاً في أوقاتٍ كثيرة.

ـ تعرفين... تعرفين يا دكتورة؟ المكان الوحيد الذي كنت أمتلك فيه حياةً، أو.. أو على الأقل نصف حياة كان مواقع وشبكات التواصل الاجتماعــي؛ هناك حيث بإمكاني الاختباء... الاختباء خلف صورةٍ لقطّةٍ ناعمةٍ أو لطفلٍ رقيق يحسبونني جميلةً مثله.. ليس هذا.. ليس هذا فحســب! بل أتمادى.......... أتمادى فأخبرهم بأنني جميلة! فأتلقــى من نظــرات الإعجــاب الافتراضية ما لا أحلــم بمثيله على أرض الواقع.. شــيئاً.. شيئاً يروي كبريائي، ولو زوراً وزيفاً؛ هناك.. حصلــت يومــاً على مــن قال لــي... قال بأننــي جميلةٌ جميلــةٌ حقاً يا دكتورة، حتى بعدما أخبرته بأنني......... أنني لست على الجمال الــذي يتوقعه، حتــى.. حتــى... حتى عندمــا أخبرته بوزنــي الزائد يا دكتورة، أمطرني بكلماتٍ كانت أنوثتي قد جفّت عمراً بانتظارها،

قال لي «لا تخافي يا حلوتي، جمالك ينبع من بسمتك البريئة» قال لي.. أن تلك الصور التي أختبئ خلفها ما هي.. ما هي إلا صورٌ تعبّر عن طهارة وجمال روحي، قال... قال بأن روحي روح طفلٍ بريءٍ مليءٍ بالنقاء والجمال ذاك الجمال الذي قال إنه يستشعره في كل مرّةٍ يكلمني فيها، لقد قال... لقد قال لي أيضاً: «ما الجسد إلا فوقعةٌ أو صدفة تخفي بداخلها أسرارها، فإما أن يكون هلاماً تافهاً، أو أن يكون لؤلؤاً ثميناً وكنزاً غالياً؛ أما أنتِ فأنتِ أغلى وأندر أنواع اللآلئ، لؤلؤةٌ مالها من مثيل».

قال لي... نعم قالها يا دكتورة...... قال لي....... «أحبّكِ» قال لي أيضاً «أحتاجكِ» حتى.. حتى.... رآني.

نعم.. نعم كانت جريمتي الكبرى يا دكتورة كانت جريمتي أنني صدّقتُ أنني كغيري، أنني.. أنني، صدّقت بأنني أستحق الحياة... رآني، ورأيته... لا لا لا.. لا لم أره بل.. بل رأيتهم.. رأيتهم! رأيت الدنيا كلّها ونظراتها لي.... في عينيه.. نظراتهم يا دكتورة كانت تسكن عينيه.

« أعذريني لا أستطيع، أنت جميلةٌ حقاً لكنك لا تعرفين شعوري بين أصدقائي حين يطلقون النكات حول امرأةٍ بدينة، ليس بإمكانكِ تقدير مدى جرح كبريائي وأنا أحسُّ بأنهم يسخرون مني، ومن حبيبتي! سامحيني»

هو.... هو.. من فقدت يا دكتورة.. بل.... فقدت نفسي.. سوسن.. سوسن هي من تركتني يومها، ورحلت إلى غير رجعة يا دكتورة، وما أنا إلا الصّدَفة القبيحة الصدَفة التي احتوت يوماً ما لؤلؤةً نادرة، لم يتبق مني اليوم إلا.. الصدفة القبيحة التي... التي يبغضها الجميع.

التفتت نحو جلنار متابعةً فيما تراقصت نجمةٌ حزينةٌ على أطراف وجنتها المستديرة.

ـأنا... أنا... أنا يا جلنار... أنا الورقة المرمية على قارعة الطريقة، أنا.. أنا.. من أنتظر أن تذروني الرياح بعيداً عن.... أعين الجميع.

تكشيرة اشمئزازٍ برزت على أنف جلنار الأرستقراطي، تململت سوسن في جلستها ليصدر الأزيز المزعج، دافعاً بالمزيد من الدماء لوجنتيها المحتقنتين، وبسحابةٍ رماديةٍ ماطرةٍ إلى عينيها، سحابةٌ اعتادت على كتمانها لتمتصّ روحها ببطءٍ مؤلم.

ـ غيّري زاوية نظرك يا سوسن، انظري لنفسك من مرآة ذاتك كفي عن البحث عنهم وعن رضاهم، توقفي عن النظر لنفسك وفق مقاييسهم انظري لنفسك! أنتِ جميلةٌ يا سوسن! أنتِ زهرةٌ ناصعة البياض في زمنٍ يتم فيه الترويج للألوان الصناعية.

كل الألم في قلبها، جراحها والإهانة البالغة الساكنة في روحها، كل ذلك كانت قد اعتادته، تآلفت معه واعتادت على حبسه تحت أكوام الذكريات والحسرات، أكوامٌ تفوق جسمها تضخّماً وترهّلاً؛ لكن كلمات جوري أخذت ترقص على تلافيف أفكارها، لتُسكرها الأحلام وتُفقدها السيطرة على ينبوع دمعٍ انبثق متفجراً من مآقيها وهي تهتف:

ـ أنا؟ أنا جميلة؟!.

لم تردّ جوري، بل عادت إلى سجائرها بصمت، فيما أشاحت جلنار بنظرها بعيداً.

ربما، ربما قالت جوري ما قالته في محاولةٍ منها لاستئناف معركتها الكلامية مع جلنار، إلا أن ما قالته كان بالضبط ما احتاجت له سوسن لترُقِّع شيئاً من ذاتها الممزّقة.

في فلكٍ آخر، وسحابة أفكارٍ بعيدةٍ تماماً كانت ياسمين تجول حائرةً بين خيارين: قيس، أم نسرين؟

كانت تفكـر وعيناها تغوصان أكثر وأكثر فـي بحر الظلمة الذي كان يلفُّ قيسـا، ليس لأن الغرفـة كانت معتمةً ولا لأنِ زاويته كانت بالغة الظلّ، إنما.. شـيءٌ ما فـي تقاطيع وجهه كان يبثُّ حوله ظلالاً قاتمة حزينة، في حين كانت عيناه المسـكونتين بملايين الأشـباح، تسكبان الألم بصمت.... صمت من فارقت روحه الحياة.

ألـم قيس، نعم! سـتكون رحلةً شـائقةً بحق، لتتعـرف على ألم قيس.

ـ قيس، أخبرنا عن ألمك لو سمحت.

أغرقها قيس بنظراته الصامتة، أحسّت بالألم يتسللّ إلى داخلها بهدوء، فيما سحب هو من على الطاولة رزمةً من الأوراق الزرقاء ملفوفةً بشريطةٍ حريريةٍ سوداء؛ رسائل، نعم إنها رسائل، لقد كان قيس يحمل رزمةً من الرسائل، لم تنتبه له وهو يدخل بها؟ منِ أين جاء بها؟ تراه أخرجها من طيّات ثيابه فيما كانت هي غارقةً في السجال الدامي بين جوري وجلنار؟ ربما.

فكّ الشـريطة السوداء، سـحب أول رسـالةٍ بروّيةٍ وعناية وأخذ يقـرأ بصوتٍ رزيـنٍ هادئٍ حزين، صـوت من يتلو القـرآن في مأتـم شخصٍ عزيز.

*حبيبتي روان، يا عروس القمر الهائمة سحراً على أكفِّ جنون الهوى؛ كيف لي أن أبوح بعشقٍ مخلوقٍ أرضيٍّ دنيوِي، كيف لإنسانٍ نحَتَهُ القدر ناقصاً مليئاً بالهفوات والأخطاء أن يعشق مخلوقاً إلهيّاً كاملاً اجتمع فيه سحر الفتنة مع الطفولة الماجنة، لتحترق أعصابي يوميّاً على شُرُفات الترقّب والانتظار؟*

*أحبّك، نعم أحبّك.. أحبّكِ بهدوءٍ من خلف قضبان ارتعاشي وخوفي؛ أخشى.. أخشى إن نال قلبي شرف هواكِ أن تطمع شفاهي بلمسةٍ مجنونة من شهد شفتيكِ، أخشى.. أن أعكّر صفو براءتكِ فتتراقص أصابعي عابثةً بخصلات الليل السابح على كتفيك، أخشى أن أدنّس قدسية الطهر في حيائكِ المفعم بالأنوثة، وأنا أدمدم مرتلاً تراتيل هواي وأمنياتي على مسمعيك، وآهٍ من حيائكِ ذاك وآهٍ آهٍ من أنوثتكِ لكم تزرع فيّ من أحلام، أحلامٌ أُبيدها، نعم أُبيدها جميعاً! فأنا يكفيني أن أعيش عمري سابحاً على أطراف لحظِكِ متوسلاً نظرةً من مرآتي الجنة عينيكِ.*

*لكنني مهما حاولت، أظلّ كائناً بشرياً ملطخاً بإرثٍ وصل إليّ من آدم وتفاحته الشيطانية في الفردوس المفقود، بشريٌّ تغويني اشتهاءات الخطيئة الأولى، أريد أن أحبّكِ.. أريد.. أريد أن أزرعكِ بين أجمَتي ذراعيّ لأحبك بكل الطرق التي تحبين، بكل طرق الملائكة، لأعلمك من بعدها أبجدية حبّ قيسٍ من الحاء إلى الباء، والحروف الكثيرة الضائعة فيما بينهما، لأغوص معكِ في بئر التنهيدات رويداً رويداً حتى إذا أدمنتِ ذاك الحب، أترعت كؤوسكِ منه ناراً ولهيباً، أن أعلّمك ذاك الحب الذي لا تعرفين، حبّ البشر، حبّ قيس..... أحبك.*

طوى رسالته بهدوء، صوت الورق كان الصوت الوحيد المسموع في العيادة، فقد تجمّدت أنفاس الجميع! تناثر الرماد من سيجارة جوري على أصابعها، توقفت سلسلةُ جلنار عن الرقص حول أصابعها، ركنت أخشاب كرسي سوسن إلى الصمت ولجأت أقلام نسرين لصمتٍ تكلّله الوحشة، فيما فتح قيس رسالته الثانية وأخذ يقرأ:

«البارحة وأنا أمرُّ بكِ سـألتني عيناكِ سـؤالاً، هربتُ منه بوجل، فسـبحت عيناي فـي أسـفلتٍ لا أرى منـه إلا وقـع خطواتك على أعصابي.

لـمَ؟ لمَ تريدين منـي أن أقولها؟ نعم أحبك! ألـم تدركيها بعد! كيـف لم تقرئيهـا بعد وأنا أحفرها كلّ يوم علـى جدران قلبي وأنتِ الوحيـدة القاطنـة فيه! ألا يُغرِقُـكِ وهجها في عيوني، تنطق عشـقاً وشـوقاً فـاق كل الحـدود؟ ألا تسـمعينها في صوتي وهـو يذوب حرفاً حرفاً ناطقاً اسـمك؟ «آنسة روان» روان.. روان.. روان... ألا تشـعرين؟! ونبضي؟ ألا تحسين بيه وهو يُسبّح بهواك في كل أوانٍ وحين؟

لمَ؟ لمَ أقول أحبك؟ الكلام لغة البشر، وما لمثلي أن يعكّر عشق مثلك بكلماتٍ قد قالها الملايين من قبل وسيقولها الملايين من بعد؛ لمَ أهديكِ عشقي مغلّفاً، ملفوفاً بلفّةٍ مبتذلةٍ لكلماتٍ شوهها الاهتراء؟

أحبك.. لن أقولها إلا بلغتك، لغة الملائكة يا ملاكي فهذا ما تستحقين.. لغة الملائكة الصبر.

أخذ يطوي ورقته الثانية فيما لم تتمالك جوري نفسها:

ـ ألم تقل لها!! والرسالة الأولى؟ لم تخبرها؟!! لماذا؟!!

ابتسامةٌ حزينةٌ كلّلت وجهه وهو يسحب آخر رسالةٍ في رزمته ليفتحها ويقرأ:

«يقولون بأنك.. سعيدة...

يقولون بأنك سعيدةٌ معه، عيناك لا تُكذّبان الخبر، عيناك تتراقص فيهما النجوم، تتلألآن وأنتِ معه أحسّ بكِ تنضحين سعادةً وبهجة، كفراشةٍ تتراقص في بستانٍ من العشق والرضى والرجاء.

تُراهُ تعلّم لغة الملائكة ليكسب قلبكِ؟

تُراه ملاكٌ مثلكِ؟ لا ... مستحيل! لا مثيل لك على هذه الأرض الفانية!

إذاً كيف؟ كيف بحقّ العشق والهوى استطاع أن يُغازل اللؤلؤ المنضود في بسماتك؟

هل غـزَلَ مـن دموعه شـبكةً صاد بهـا ارتعاش الـلازورد على مرمر خدّيـكِ؟ كيف تمكن من أن يغترف عبير الجوى من تنهداتك العطرية!

كيف! كيف! ... كيف فاز بأسطورة الهوى... قلبكِ؟

هل هو بحقٍّ حبيبكِ؟ والأهم، هل أنتِ حقاً حبيبته؟

ألأرسل كواكب الصباح رُسُلاً لعذابات سهر لياليه في انتظار إشارة رضى ترمينها له من على أطراف أناملكِ؟

أسَـطَرَ الهـوى قصائد وأغاني تحكـي قصّة فـانٍ ذاب في هوى ملاكٍ؟

أتبعُكِ أنا كلّ يوم، أعلّق أسئلتي على أشواك عذاباتي باحثاً عن آثار دماء روحي على قسماتكِ، أبحث عن شظايا قلبي في قهقهاتكِ الموجعة، أحاول أن أصطاد أي أثرٍ للندم في حركات يديكِ، عن رعشة أسى تبدر عن يدٍ مجرمةٍ مخضّبةٍ بدماء عصفورٍ عاشق.

لكن.. كيف أصفك بالإجرام وأنت من منحني الحياة! بل أنتِ الحياة نفسها!.

أعذريني حبيبتي.. سـامحيني فالذنب ذنبي؛ أستجوب حبي كل يـوم.. كيـف!.. كيف ما لمسَـكِ. كيف ما رقص رقصـة من اكتوى بلظـى نيرانـكِ؟.. كيف!.. كيف بقـي مختبئاً في ظـلال خوفي؟.. كيف!

أتبعكِ كل يومٍ وأبحث وأبحث، لأجمع في جعبة يأسي المزيد من الحسرة والإحساس بالانعدام، روحي ماتت دونما سببٍ يُذكر، على ضريحٍ من لا تعترف بها!..

أنا... متّ بلا ثمن.

هل أذرف الدموع وأبكي؟ مجتمعنا يا حبيبتي ينظر للدموع على وجنتي الرجل نظرة احتقارٍ واستصغار، مجتمعنا يرى الحبّ في قلبي على أنه ضعف، وصدق مشاعري على أنه ليونةٌ وأنوثة، ليقذفني أقرب أصدقائي بأقبح الصفات، ليجرّدوني من رجولتي وشرفي واحترامي؛ فالرجل الشرقي إن لم يتجاهل حبيبته ويقسو عليها فهو في عيون المجتمع مخنّث، نعم تلك كانت أبسط الصفات التي يرمونني بها من وراء ظهري.

ماذا عنه؟ هل هو رجلٌ شرقيٌّ يصارع أمواج حبّه ليرسم على عينيه نظرة قسوة؟.. أيمارس قوانين مُتَعهم المريضة؟ أيستمتع بضعفكِ عوضاً عن عنفوانكِ؟!! أيعتبر ألمكِ في سبيله رجولةً وقوّة؟.. أترضيه تعاستكِ؟ أيعلّقكِ عارية الاستقلالية على صلبان الشرق ومعتقداته؟ أذاك العشق الذي كنتِ تتمنين؟

لاحظت أنه يتأخر عليكِ دوماً، وأنتِ تعدّين أوراق الورد والفل والياسمين.. تعدّين على البتلات المتساقطة احتمالات العشق واللا عشق، أذاك التذبذب بين الطمأنينة والخيانة هو ما تستحقين؟ أتستحقين منه بعد غياب بضعة أعذارٍ يرميها على طاولة الكافيتريا إلى جانب فناجين انتظاركِ بلا مبالاة، ليقابل احتجاجكِ بثورةٍ وغضب؟ أهذا هو العشق البشري؟

لكنكِ حبيبتي سعيدة! عيناك تضحكان!.. عيناك ترقصان على قبر أحلامي، فيما أعتّق زجاجات الألم في داخلي بصمت.

*تعرفين... ستعودين! نعم ستعودين لي.. ستكفرين بعشقك البشري هذا وتهتدين إلى حبي الملائكي، ستعودين لي طبعاً! تباً لي، كيف لم أفكر بهذا من قبل؟! فقصة حبنا لولاه كانت لتكون بسيطةً جداً، باهتةً جداً؛ كان لا بد لها من حبكةٍ دراميةٍ ممتعة، لتصبح قصةً تستحق أن نلقيها على مسامع أحفادنا.*

*هيا يا عزيزتي، اضحكي له أكثر، رشّي المزيد من الملح على جراحي فيما أتمدد أنا هنا دامياً فالمشهد الدرامي يبدو مؤثراً أكثر إن تأوّهت أنا اكثر وأنت تُقهقهين؛ قهقهي يا حبيبتي، اسعدي وافرحي معه؛ آآآآآآآهٍ لكم يؤلمني بُعدكِ.»*

نسمةٌ شاردةٌ لاهية، أبعدت الستارة المنسدلة على الشباك، مفسحةً الطريق لشعاعٍ أبيض تساقط على الوجه الحزين، معانقاً دمعةً أسرع قيس بالتقاطها، عادت الستارة إلى مكانها، هرب الشعاع، وعاد قيسٌ ليغوص في ظلال الظلمة أكثر وأكثر فيما كان يتلهّى بإعادة حزم رسائله الزرقاء وربطها بشريطتها السوداء.

نقطٌ شاحبةٌ أخذت تغوص في تنورة ياسمين منهمرةً من ذقنها، لتُفاجأ بأن وجهها كان غارقاً في الدموع، قلبها كان يئنّ، يصرخ احتجاجاً لشدّة الألم، أرعبها سيل مشاعرها!

لا.. إنما هو حوار جلنار وجوري ما قد أثار أعصابها وحزن سوسن زرع فيها بذور الألم، وما قصة قيسٍ إلا القطرة التي دمّرت سدّ هدوئها المنيع، لتُغرقها دموع التأثّر.... نعم هذا هو التفسير الوحيد؛ لكن هذا لا يمنع أنها كانت في مأزق!

هي، الطبيبة النفسية، غارقةٌ في دموعها أمام مرضاها!

«شدّي بأسك يا ياسمين، عليكِ أن تكوني قوية!» خاطبت نفسها

وهي تودع تأثرها في منديلٍ أبيض، رمته جانباً وهي تغير منحى اتجاه أفكارها... نسرين وجوريٍ... لم يبقَ إلا نسرين وجوري.

في حالتها النفسية تلك، جوري كانت لتكون مخاطرةً كبيرة، لتأخذ استراحةً من إرهاقها العاطفي وتغوص في بحور إبداع نسرين مكتشفةً ألمها.

ـ نسرين، ألن نتعرف على ألمكِ اليوم؟

عين دامعةٌ كانت تظهر رويداً رويداً، فيما كانت نسرين تنشب أقلامها في صفحة الكراس بجنون فنانٍ عبقري، أنهت رسمها، مَهرَته بإمضائها ثم رفعت رأسها لياسمين وهي تبتسم، شيءٌ ما غريبٌ في ابتسامتها تلك، شيءٌ غريب لم تتمكن ياسمين من فهمه.

قلبت صفحات كراسها بسرعة لتصل إلى صفحتها المنشودة؛ نظرة حزنٍ طفت على وجهها وهي ترفع الكراس عارضةً لوحتها على الجميع.

الرسم كان دقيقاً جداً، متقناً جداً، وعلى عكس عادة نسرين لم تكن الألوان تتراقص على اللوحة في سيمفونيةٍ بصريةٍ ممتعة، هذه المرة كانت ظلال أقلام الفحم السوداء تعانق الورق بشجنٍ أليم، الظلام يتداخل في شِباكٍ عنكبوتيةٍ ملتوية ومن ورائها تكاد تلمح أشباح وجوهٍ تتأوه بوَجع؛ واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة؟ لا! أربعة، أربعة وجوهٍ فقط كانت تلوح من وراء التقاطعات المعتمة، لكن ذلك لم يكن بحالٍ من الأحوال ما دفع قلم ياسمين للسقوط من يدها، مزعجاً سكونها الذاهل بصوته المستفز على البلاط الصقيل، فما كانت الشباك والظلال والوجوه المتوارية إلا إطاراً مظلماً للوحةٍ غريبة، لوحة تتوسطها نسرين تقبع في جلستها المعتادة على الأرض وهي تمدّ أصابعها بترددٍ نحو مرآةٍ طويلةٍ أمامها وعلى المرآة، انعكست صورة... صورة ياسمين.

على عكس ياسمين التي كانت في تلك اللحظة مشدودة التعابير تـكاد ترتعش لشـدة التوتر، ياسـمين اللوحة كانت تحمـل تقاطيع حالمة، وشعراً فاحماً منثوراً حول الوجه ليفرض المزيد من الظلال القاتمة على عينين ذائبتين في الدمع.

نظـرات ياسـمين الحائـرة انتقلـت من اللوحـة إلـى صاحبتها تتفحص التعبير الحزين على وجه نسـرين محاولةً اسـتقراء شيء.. أي شيء من تلك العينين الواسعتين الطفوليتين؛ لكن نسرين هربت بنظراتهـا برهةً وهي تطوي كراسـها وتعيده لفوق ركبتيها ثم تسـبح بعينيها هائمةً في اللوحة المثبتة على الجدار.

أحسّـت ياسـمين بظلال اللوحـة القاتمة تتسـرب إلـى روحها لتُغرقها في شـعورٍ معتم، شردت عيناها في الخطوط المتوازية على دفتر ملاحظاتها لتقتنصهما الرسومات والنقوش التي كانت تزرعها علـى الصفحـة طوال الجلسـة، قلبت ورقـةً.. ثم أخـرى.. واحدةٌ بعـد... كان الدفتر كله مليئاً بتلك الرسـومات الجانبية التي دوماً ما تهديها أقلامنا لأطراف كراسـاتنا وكتبنـا عندما نحاول الهروب من قفص أفكارنا الشاردة، محاولين التركيز، ترى لاحظت نسرين تلك الرسـوم؟ تراها حسبت ياسـمين مثلها تُفرز مشـاعرها على الورق هرباً من كلماتٍ لا تُجيد صياغتها؟

انتشلت ياسمين أفكارها ونظراتها من الدفتر، واسندت ذراعيها إليه فـي حركةٍ حاولت قـدر الإمـكان أن تجعلها تتسـم بالطبيعية، مخفيـةً بذراعيها الأوراق والرسـوم؛ «في المرة القادمة سأسـتغني عـن دفتر الملاحظات» قررت بحزم وهي تعلّق نظراتها ومن خلفها أفكارها على أخر مهرب تستطيع النفاذ إليه اليوم: جوري.

أما تلك الأخيرة فقد حباها الله بحاسةٍ خاصة، حاسةٍ يمتلكها أولئك الذين اعتادوا التعرض لكافة أنواع الاستغلال، حاسةٌ مميزةٌ جداً تمكنت بها جوري أن تستشعر نظرات ياسمين وتستقرأ من خلالها المناورة التي تدور في ذهنها، فما كان منها إلا أن أشاحت بوجهها بعيداً معلنةً رفضها واحتجاجها.

ابتسمت ياسمين ابتسامةً مستمتعة، جوري.. يا لها من مخلوق مثير!

رويداً رويداً أخذت نظرات كل من في العيادة تنصب على جوري، لتدرك بأن الهروبَ لن يفيدها.

.ـ قبل أن تتكلمي، ليس وهي هنا!

كانت تلك محاولتها الأخيرة للرفض، محاولةٌ بانت ضعيفةً على الرغم من الإشارة القاطعة التي أبدتها وهي تمد إصبعها نحو جلنار.

اتسعت ابتسامة ياسمين وتقوّس أحد حاجبيها في هدوءٍ مستمتع، لكن جوري استطردت قبل أن تترك لها فرصة التعليق:

ـ بالله عليكِ أعفيني من المزيد من المناورات! قلت لكِ لن أتكلم في وجود هذه المخلوقة!

ـ ومن يهتم بـ.....

إشارةٌ واحدةٌ من ياسمين كانت كفيلة بإيقاف وابل الكلمات المتغطرسة التي تأهبت جلنار لترشق بها جوري؛ إشارةٌ حازمة، لم تكن مصحوبةٌ بنظرة حتى! فنظرات ياسمين كانت مثبتةً على جوري في مزيج يكاد يكون مستحيلاً من الحزم والرقة، ففيما اكتست ملامحها بطبقة رقيقةٍ من الحزم انسابت الكلمات من بين شفتيها بتعاطفٍ ودقةٍ مدروستين:

ـ بإمكاني تفهّم شعورك، فالبوح بالألم يورث الحسرات، لكن عليكِ يا جوري أن تدركي بأننا كلنا هنا ـ بما فينا جلنار ـ نحاول مشاطرتك أحزانك، لنساندك في مشوار الحياة الصعب، فقد جمعتنا هذه الجلسات بعدما فقد كلٌ منا قدرته على التعايش منفرداً مع القسوة التي يغرقنا فيها الواقع، اجتمعنا ليكون كلٌ منا للآخر شريكاً وسنداً، كلنا هنا يا جوري نودّ سماعك.. بل أكثر من ذلك حتى.. كلنا هنا نحتاج لسماعكِ.

وكما هو متوقعٌ منها، امتدت يدا جوري المدمنتان نحو علبة سجائرها لتسحب لنفسها صولجاناً جديداً تتحكم من خلاله بمملكة أعصابها الثائرة، أنوارٌ صناعية خضراء وحمراء تلألأت على قداحتها وهي تشعل السيجارة، سحبت نفَساً طويلاً وسبحت عيناها في اللوحة المعلقة على الجدار، لم تنفث الدخان، بل تركته يتسرب من بين شفتيها المطليتين بهدوء متجاهلةً النظرات التي كانت تحاول التغلغل في أفكارها؛ تجاهلٌ يجيده فقط من اعتاد دوماً أن يكون محط الأنظار، أخيراً اندفعت نهاية سحابة الدخان الطويلة من شفتيها بسرعة، متبوعةً بصوتها الهادئ:

ـ ياسمين... نعم أنتِ فعلاً ياسمين (سحبت عينيها من اللوحة ووجهت نظراتها الشاردة نحو ياسمين) رقيقةٌ حدّ الهشاشة، مهما حاولتِ ارتداء قناع الطبيبة النفسية الحازم ذاك، إلا أن الرقّة تنساب من وجودك بحد ذاته!

نعم أنتِ ياسمينةً صغيرة، الزهرة الرقيقة المعلقة على أكفّ الشجرة الكريمة، تطرح عطرها للكون وبسمتها البيضاء تفيض بِشراً، كأن لا ظلم ولا شر في الدنيا! بياضها يدعوك للتفاؤل، وفي

عالـم يقتات علـى دخان اليأس، رقتهـا تغريك لتعتقـد.. بأن الدنيا لا زالَت بخير.

(استسـقت سـيجارتها لتحـرق بداخلهـا المزيـد والمزيـد من الدخان، طرحت سحابتها الملوثة بسرعةٍ لتستأنف:)

حذار يا ياسـمين! حذارِ! الدنيا ليسـت بخير.. حـذارِ.. لا يفهم النـاس حبّ الزهـور، يمدون أيديهـم نحوها، يقطفونهـا، يخنقون عطرهـا لتصفـرّ بتلاتهـا مـن طعنـات أظافرهـم، وبعـد أن تمتص مسـاماتهم نضارتها ورقتهـا يرمونها أرضـاً، يدوسـونها ويكملون طريقهم، غير عابئين بأناتّها العطرية الأخيرة وهي تضيع في الأثير.

(مرّةً أخرى نحّت الكلمات جانباً لتمنح للدخان سبيلاً مختصراً نحو مشاعرها وأفكارها، ليسبح بداخلها برهةً ثم يخرج محمّلاً بسواد آلامها)

نعم.. أنتِ ياسمين!

أما أنا.. فأنا جوري!

أنا الزهرة الغجرية الخلابة، الجميع يسـعى للمسةٍ من شـفاهي المخمليـة؛ ضحكاتـي قربانٌ للحـب والاحترام، يقدسـونني رمزاً للحـب والعشـق، يترجمـون التفـاف بتلاتـي وترقـرق ألوانها إلى آلاف العبـارات واللغات، يغرسـونني قصائد ويحصدونني جوهرةً ويهدونني أكثر أمانيهم.

أنا جـوري، يلفوننـي بأنواع الشـرائط والسـيلوفان، يرشـونني بالعطور وقطرات النجوم، لكـن كل مفاتنهم الصناعية لا ترقى لأن تكون عبداً في معبد جمالي.

أنا... أنا..

أنا جوري.. تتسـابق النسـمات لتراقصني وأنا هائمةٌ على غصن شـجرتي، الشـجرة التي تحملني منفردةً لتميل بي تيهاً وفخراً وهي

تحتضنني، فيما تخرّ أشعة الشمس ساجدةً على أطراف أوراقي.

أنـا.. أنا جـوري.. حيثمـا أحل أسـرق الأضواء جميعـاً، ملكة الأزهـار أنا، وإن فكـرت يوماً أن تقتنصني على عجالة، سـتجد من أشواكي ما يدميك ويردعك عن التعدي على نعاسي المدلل.

(نفساً آخر من سيجارتها طلبت، سرعان ما قطعته لتشير بيدها والدخان يتراقص حول أصابعها متسرباً نحو جلنار)

أما تلك، فقد كدت أنفجر ضحكاً عندما اختارت اسمها!

جلنـار!.. الزهرة البلاسـتيكية القاسـية، تحاول بلونهـا الناري اللامع أن تدّعي السمو على باقي الزهور، فتخسر مع أول هبّة نسيم.

(تلاحقت أنفاس جوري لتتلاحق معها كلماتها فيما أطلت ضحكةٌ سادية متراقصةً على زاوية فمها)

زهرةٌ لا تجيد الرقص مع النسيم، ولا يكللها ندى الصباح، زهرةٌ لا عطر لها ولا يلامسها تغريد الطيور؛ جلنار.. الزهرة المزيفة! نعم مزيفة!.

رمت بآخر كلماتها على أطراف سيجارتها وهي تسحب منها نفساً أخيراً، تئدها بعده في المطفأة لتزهق آخر سحب الدخان.

لـم يتجـرأ أحدٌ علـى النظـر مباشـرةٍ لضحيتها؛ لكـن النظرات المختلسـة تمكنـت مـن أن تلمح الشـحوب وهو يتسـلل إلى كافة قسـمات جلنار، ليس قسـماتها فحسـب، حتى ثيابها المتماشية مع آخـر صيحات الموضة الراقية، حتى حذاؤها وحقيبتها، الشـحوب غطى حتى نظارتها الشمسـية والتي.. بشكلٍ أو بآخر.. بدا.. خُيِّل.. وكأنما!.. كان يترقرق وراءها.. شيءٌ ما.. أشبه ما يكون بـ... دمعة!

ـ لكن.. لكن... ليس صحيحاً! للجلنار رائحةٌ عذبة، لا يعرفها إلا من يقترب منها، وعلى الرغم من قسوة مظهرها، إلا أن بداخلها

رقّةً لا تُصدّق.... هي.. هي زهرةٌ تخدع الجميع، مدعيّةً القسوة والصلابة لكنها في الداخل.. زهرةٌ مثل باقي الزهور نعم هي كذلك هي، تعانق النسماتُ عطرها سرّاً، بعيداً عن الجميع.. فقط.. في داخلها.

ما كان لأحدٍ أن يتخيل أن تكون هي من يدافع عن جلنار! بل ما كان لأحدٍ أن يتخيل لأن تأتي كلماتها بهذه الجرأة والقوة؛

لكنهـا عادت فـوراً لعادتها، كلمـا تعلقت العيون بهـا تقوقعت هاربـةً فيما يتراقـص اللون الأحمر على وجنتيهـا الممتلئتين؛ نعم، من دافع عن جلنار، كان.. سوسن!

كلماتها تلك أعادت اللون لوجه جلنار، التي ارتدت قناعها المتغطرس بسرعة مطلقةً زفرةً مصطنعة:

ـ أف.. ما كل هذا الكلام عن الزهوغ! هل أضعتِ باقة أزهاغ!

ـ بل بستاناً!.. فقدت بستاناً..

أخذت أصابعها تسـعى نحو سـجائرها لتسـتخرج المزيد، لكن سـعالاً حاداً من صدر نسـرين أوقفها؛ وضعت العلبـة جانباً ورَنَتْ بنظرهـا نحـو النافذة، تعلّقت أسـاريرها، بل وجودهـا كله بالفضاء خارجاً، كانت تبدو كطير حبيس، كأنما روحها كانت تسعى للهرب.

زفـرةً حارّةً أطلقـت، صوتٌ عميـقٌ لا يمتُّ لنبرتها المسـتهترة المعتـادة بأي صلة، بـاردة، وحيدة، مرتعشـة خرجت الحروف من بيت شفتيها:

ـ أخـي.. أخـي الوحيد، كان بسـتاناً لـي، تتألق بتلاتـي النضرة في رحابه بأمانٍ وسـعادة، أخـي كان لي حصناً، كان أرضاً أتشـبث بهـا وأسـتقي منها الرغبـة بالحياة؛ وإن تسـللت لي آفـة اليأس، إن حاولت حشـرات الخوف والشكّ أن تقتات على وريقات طموحي

وأحلامي، كان يلتقطها واحدةً واحدة ويلمّع أوراق أملي بيدٍ ملؤها الثقـة والحنان؛ أخي كان بسـتاني.. لكنه رحـل.. والآن... الآن أنا زهرةٌ بلا وطن.

هل سـبق لك أن رأيـت وردةً أرجوانية؟ إذاً سـتتمكن من تخيّل شـكل جوري بالضبط؛ البتلات المخملية الحزينـة ملؤها الكبرياء والشـمم تسـتكين إلـى أوراقها رافعةً رأسـها بثقة، فـي حين تنبئك الظلال البنفسـجية بأنها تخبئ بين بتلاتهـا طوفاناً من الألم والعتم؛ جوري كانت لحظتها.. وردةً أرجوانية؛ حتى شعرها الأحمر الناري بهت لونـه، بهت حتى ليخال لك أنه انقلب أرجوانياً، حتى صوتها! حتى صوتها كان.. بشكلٍ أو آخر، أرجواني.

ـ يومـاً مـا، منـذ أمد بعيـدٍ بعيد، منـذ آلاف السـاعات وملايين اللحظـات... شـهورٌ، أيامٌ وربما سـنوات... يوماً مـا.. كان لديّ عصام، كنت أبدأ يومي بقطرات ندى من صوته الحاني وهو يبلغني أن «صبـاح الخيـر»، كنت أنهـي يومي وظلّ القمـر يناجي أحاديث مسائنا.

عصامٌ كان الأرض التي تضرب فيها جذوري بقوةٍ وثقة، كان البستان الذي تترقرق فيه ألواني، ويهفو عطري بأمان.

ما احتجت لأشواكي يوماً! أسوار رعايته كانت تحوطني، وكثيراً ما كان يصلب نفسه فزّاعةً تبعد عني مخالب الغربان.

كم كنت أستغرب حينها، فمن بعيدٍ كانت الغربان تبدو طيوراً جميلةً خلابةً أنيقة، كانت تبدو سامية في طيرانها فوق الجميع؛ ما كنت لأعرف أنها تجرح، تقطع، تقتل!

مـا كان لي أن أعـرف، فقد كان لديّ عصام، وفي ريعان بسـتانه كانـت أمـي ينبوعٍ حنـانٍ عـذب يسـقينا حبـاً ورعاية، وأتـلألأ أنا جوهرتهما رافعةً رأسي نحو السماء.

كان لنا وطناً فخدعوه، أخذوه، سرقوا وطننا تحت اسم وطنٍ آخر، وطنٍ أكبر.

ثبتت عينيها على بقعةٍ خلف النافذة، عصفورٌ ربما أو شجرة، أو ربما كانت تنقش في الفراغ صورة وجهٍ حبيب، لا يراه سواها.

ما كان لأحدٍ أن يقاطع صمتها، كان صمتاً بليغاً، صمتٌ تستشعر فيه أنين روحها المتوجعة، ما كان لأحدٍ أن يقاطعه، حتى جلنار.

ـ بدأوا يقتحمون أرضنا كل يوم، رائحةٌ غريبةٌ بدأت تفوح في البستان، إحساسٌ غريب وهم... يجالسونه كل يوم، يحاورونه كل يوم، يشيحون بوجوههم حين أدخل بالقهوة، وتسرق عيونهم من لوني ارتعاشةً مختَلَسة وهم يغادرون.

ساعاتٌ على الشاشات المتلفزة أو المحمولة، وساعاتٌ وساعاتٌ من الوحدة، هرب الندى من صباحاتي وأخذت حشرات الخوف تقرض ابتسامتي بثقة المنتصر، فقد قرر عصامٌ أن يكون بستاناً للبلد كلها، أن يصلح الكون، جعلوه يصدق بأنه...

اختنق صوتها، دمعةٌ تدحرجت على خدها الرقيق تجاهلتها، ابتلعت غصةً مؤلمةً وأخذت تنقر بأصابعها على حقيبتها بتوتر.

ـ خرج يوماً، وعادوا هم.

«عصامٌ في الجنّة! افرحي، افرحي يا جوري لماذا تبكين؟ لماذا تشهقين؟ هو بطل.. هو.. هو.. هو... شهيد!»

لم تكن الدموع تنساب على وجنتها بل كانت تقفز من عينيها بغضب حمماً حارقة تزيد من ألمها اشتعالاً؛ أخرجت منديلاً مسحت به الدموع والكثير من اللون الأسود السائل من عينيها الكحيلتين، رمت المنديل جانباً جثةً لقلب محتضر.

ـ زيف، نعم زيف كلهم كانوا مزيفين! سمّوا أمي «أم الشهيد»

سحبوها من يدها وراء الشاشة، سحبوها ليستغلوا أمومتها مستدرين ألمها، ودموعها.

بكت كثيراً وتضرّعت أكثر، الدنيا كلها شاهدت أمي تنكسر! نبعاً يجفّ على الشاشات المتلفزة، وما من نبعٍ يجفّ يعود مجدداً للحياة؛ قتلوها، قتلوها كما قتلوه، قتلوه سذاجةً وطموحاً وغروراً، وقتلوها قهراً وذلاً.

أما أنا.. فها أنا ذي.. ها هنا لا أزال، أرى صوره كل يوم في كل مكان هم يريدون «حق الشهيد» وأنا.. أريد الشهيد.. أنا أريد أخي فقط.

أنــا لا أزال هنــا، باقيــة.. وردةً وحيدةً بـلا بسـتان، وردةً تتقاتل الغربان لتقضم أطراف أوراقها.

«أنتِ أخت الشهيد، أختنا، كلنا لكِ كلنا أهلك»

لكم تسـوَد الحياة وتصعب أمام امرأة وحيدةٍ في عالمنا هذا، في الشـرق الذي يصلب النسـاء «حرماتٍ» على مائـدة نميمته اليومية وينساها تماماً على مائدة العشاء.

كان عليَّ أن أجابه الدنيا كلها، لوحدي؛ وكأي فتاةٍ غبية صدقتهم، صدقت كلامهم ووعودهم لأدرك مؤخراً أن شرقنا لم يعد يحتوي إلا على «ظلال الرجال» أين رحل الرجال؟ لا أحد يعلم.

أولهم وعدني أن يكون لي بستاناً، سبح في بحور عطري، غرّد لحناً مسروقاً من أفنان الهوى، داعب بتلاتي ثم رحل

الثاني وعدني بأصيصٍ ومرشّة ماء، لوّح لي بقطراتٍ من ندى ومنح بتلاتي شيئاً من نسيم، رقصت على نغمات كلماته وما أن أغمضت عيني لأحلم، حتى رأيت في أصيصه وردةً أخرى! وردةً اصطناعية، وردةً لا شوك لها، وردةٌ لا تمتص من روحه نسغ

الحياة، يطويها يميناً تنطوي، يحرّك بتلاتها كيفما يشاء دون أن تئنّ محتجةً إن هتكت مشاعرها قسوة أصابعه، وردةٌ سهلة.

الثالـث وعدنـي بمملكـةٍ من ورد، ليقـدم لي في آخر المشـوار مزهرية لا تتسـع لجذوري، الماء فيها لا يـكاد يبلل عطش روحي؛ وحين احتججت، مطّ شفتيه ورحل.

عندها فهمت..

لا عهد لرجل

لا عهد لرجل!.

ـ لم يحببك أيٌّ منهم

ـ عفواً؟

ـ من يحب لا يكون لحبيبته أرضـاً، زهريةً أو إناء؛ من يحب يكون لحبيبه الشمس والهواء، يحيطها بحبه ورعايته، يتغلغل في مسامها وخلاياها، وإن داعبها، داعبها نسيماً عطوفاً ولِهاً لينثرا سوياً عطر هواهما على الكون بأسره، ليس الحب سجناً يا جوري، الحب بقاء؛ صدقيني لم يحببك أحدٌ منهم.

حاولت جوري سـبر ملامحه التائهة بين الظلال، لكن قيسـاً لم يبادلهـا النظـرات، عيونه كانت ترمق الرسـائل علـى الطاولة أمامه بنظرةٍ لا لون لها.

ـ مخطئٌ أنت يا قيس، لقد أحبوني، كل واحدٍ منهم أحبني هم وغيرهم أيضاً؛ أنا وردةٌ فاتنه، خُلِقت لأثير الحب والإعجاب.

مالت للأمام مستندةً إلى مرفقيها، نظراتها ما عادت تبحث عن ملامحه، بل باتت ترسل رسائل شائكة فيما تسللت بسمةٌ ساخرةٌ لتمنح صوتها المزيد من المرارة:

ـ أنا أحبّ القطط، أحب سجائري، أحب ذاك الكرسي الوثير في

منزلي، أحب هذه اللوحة على الجدار، أحب أمي.. وأخي، وفوق هذا كله، أحب نفسي.

تناولـت علبة سـجائرها وأخذت تقلبهـا في يدها، نسـمة هواءٍ هبّت لتداعب شـعرها الماجن، الذي.. وبطريقةٍ غامضة.. اسـتعاد لونه الأحمر الناريّ.

أغمضت عينيها واستأنفت:

ـ أحبوني كلهم، لكنهم اختاروا النوع الخاطئ من الحب، هذا كل ما في الأمر، أنت أيضاً وقعت في نفس الفخّ، منحت حبّاً ملائكياً لمن كانت تبغي حبّاً بشريّاً.

رمـت سـجائرها علـى الطاولة مـرّةً أخـرى، أرجعـت ظهرها للخلـف، بريـقٌ التمع فـي عيونها وهـي تمرر أصابعها في شـعرها الساحر.

ـ أنا جوري، غجرية القلب، كل القلوب زرت ولا قلب أسكنه، أملك كل شيء، ولا أملك أي شيء.. المهم أنني تعلمت.. كيف أكون سعيدة.

كل مـا في الأمـر، أنني، لا زلـت في داخلـي.. أحنّ إليـه وطناً وبستاناً.

كل ما في الأمر أنني... اشتقت له.

## (٢)

كان يومـاً عصيباً، وفي تلك الأيام العصيبـة يحلو للمرء البحث عـن ذاك الحضـن الـذي يعلم تمامـاً أنه سـيكون كفيـلاً بإذابة كل المتاعـب والآلام، فيبحـث عن «سـكنه» يعـود إليـه لتتفتح زهور البهجـة في القلب وتتم بنجـاحٍ عملية وأد ذاك اليأس البغيض؛ لهذا خلق الله لكل آدم حواءه ولكلِّ حواءٍ آدمها.

حواؤنا كانت بحاجةٍ ماسّةٍ لآدمها بعد يومٍ أضناها فيه اختلاط المشاعر واجتراع آلام مرضاها الألم تلو الآخر، فعلى الرغم مِن أنها تمكنت من تغليف مشاعرها بمهنيةٍ ممتازة أكثر الوقت، إلا أن آلامهم تمكنت من النفاذ إلى روحها فأنهكتها، لهذا دخلت المنزل تناديه بصوتٍ منهك:

ـ مروان، أنت هنا؟

رددّ الخـواء نداءهـا؛ هزّت كتفيهـا بلا مبالاة وهـي تبتلع غصة الخيبة في حلقها، تضع مفاتيحهـا وحقيبتها جانباً وتراقب انعكاس

وجهها على المرآة؛ كما توقعت كانت سحب التعب قد مضغت بريق عينيها فيما كان الشحوب يكسو ملامحها، لا! لن يجدها هكذا عندما يعود من عمله، عليها أن تكون نضرةً كبرعم وليد.

نزعت ثيابها واتجهت نحو الحمام، ملأت الحوض بالمياه الدافئة وانسابت فيه بخفةٍ لتغسل عنها رماد يوم تودّ حقاً لو تنساه.

أخذت أفكارها تحوم حول زوجها وغيابه المستمر، أصبح كثير الغياب هذه الأيام، عمله يسلبه منها كل يوم لساعاتٍ وساعات، حتى إنه في بعض الأيام كان يضطر لتركها وحيدةً في حين يقضي ليلته في المطبعة؛ بعض الأفكار الشيطانية كانت تعبث في خيالها كل مرة، لكن الإرهاق البادي على وجهه وثيابه الملطخة بالحبر كانت تغرقها في غمرة شعورها بالذنب، هو يغيب لأجل العمل، هي متأكدةٌ من ذلك.

حركت قدمها داخل الماء بعصبية:

ـ أكره عمله! نعم أكره عمله! عمله الذي يسرقه مني دوماً! أكره عمله! أكره كيف يتركني وحيدة، أكره شوقي.. أشتاقه.. أشتاقه كثيراً، ولا يكاد يعود إلي ويلامس أوتار قلبي حتى يغيب مجدداً فأشتاقه أكثر، واشتياقٌ على اشتياق، تغمر أمواج الشوق قلبي مدمرةً كروم الهوى والعشق، محطمةً كل ما في سبيلها ولا يتبقى لي من بعدها إلا إحساسٌ عارمٌ بالاحتياج والوحدة. أكره الوحدة أنا أكرهها! أكره شوقي له! أكره عمله! نعم، نعم أعلم، أعلم أنه هو من ساعدني، هو من أنشأ عيادتي، هو من حقق لي حلمي، لكن لا يهم، لا يهمني أي شيءٍ بعد! أنا أكره عمله!

كانت تضرب برجليها في المياه كطفلٍ صغير فيما أخذ وابل أفكارها يتسرب من بين شفاهها جملاً وعباراتٍ صاخبة. أن تحدث نفسها كانت عادةً اتخذتها منذ الصغر، ولا زالت...

ـ ككل الرجال نضب نهر شوقه، ككل الرجال اعتاد وجودي في حياته، صرت واقعاً بعد أن كنت أملاً، فلماذا! لماذا يسابق الزمن ليكون معي وهو يعلم بأنني سأكون موجودةً دوماً مهما تأخر، مهما تعثّر، سيجدني في الانتظار!

ما عاد يحتاج لأن يصارع الدنيا ليزين عمره بسويعاتٍ مسروقةٍ من فردوس سعادتي؛ كنتُ في الماضي مكافأةً من الله على طول صبر وعناء، كنت أنا فاكهة حياته، الآن صرت خبزاً.

(أنا أتحرق شوقاً لا يسعني الانتظار حتى يضمنا كنف بيتٍ واحد) جملةٌ طرقها كل الرجال وصدقتها كل النساء، وأنا كنت منهن، وتتكرر القصة الأزلية، جاء البيت الواحد ولا يكاد يلوذ به... نعم أنا أكره عمله! أنا أكره الوحدة!

رنّ صوت جوري في خيالها مجدداً «كل ما في الأمر.. أنني... اشتقت له»

ـ نعم اشتقت له! اشتقت له وسأخبره عندما يأتي، أنا بحاجةٍ لباقات الورد التي كان يحملها لي، أنا بحاجةٍ لساعاتٍ وساعاتٍ من الغزل والحب والاهتمام، إنها ضرورةٌ لا رفاهية! أنا لست ياسمينةً يشمها ثم يرحل! أنا... أنا أحبه يا قيس!

شهقةٌ منخفضةٌ ندّت عنها، فيما استدارت عيناها في دهشةٍ ممزوجةٍ بالخوف، رفعت يدها لتغطي فمها بسرعة وقد أخذ الرعب يتخذ شكلاً واضحاً، شكل اسم تسلل إلى داخلها أكثر مما ينبغي.

أغمضت أفرغت حوض الاستحمام كأنما تطرد أفكارها مع المياه المتسللة من حولها، نهضت بسرعةٍ وأخذت تكمل استحمامها بتوتر ومع نهاية حمامها تركت المياه الباردة تنساب على رأسها وجسدها

بهدوء، سيل الماء البارد أعاد لها شيئاً من اتزانها، لكن شعوراً متوحشاً أخذ يكتنفها بسرعةٍ خيالية:

«أريد أن آكل شيئاً» حاجتها لمضغ شيءٍ ما كانت طاغية، لفت منشفةً حولها واتجهت لغرفتها ارتدت ثيابها بسرعة وقبل أن تسرح شعرها اتجهت نحو المطبخ، فتحت الثلاجة وأخذت تغزو محتوياتها وتنهب فيها، تذوق من هذا وذاك باحثةً عن شيءٍ مفقود، قطعة خبزٍ مغموسةٍ في إناء اللبن أو في قصعة المسقعة؟ لا.. ربما شيءٌ من العنب لقمة جبنٍ ستكون شهيةً معه، لقمة من المكسرات.. نعم لذيذٌ جداً، لقمة أخرى... وأخرى ربما بعض الفلفل، أو.... لا لا ليس هذا ما تبحث عنه تحتاج لشيءٍ آخر... الشوكولا، الموز، ربما التفاح؟ كانت اللقمات تدخل فمها ولا تكاد تلمس أسنانها حتى تبتلعها مسرعةً كأنما تحاول ملأ فراغ بداخلها، فراغٌ كان يتسع ويتسع بسرعة مضنية؛ انهمكت تماماً في دائرة النهم، حتى أنها لم تشعر بدخوله إلا وهي تقفز من المفاجأة إثر إحساسها بلمسته على كتفها؛ ابتلعت اللقمة بسرعة كمن يخفي ذنباً ما، اغاظتها الابتسامة على وجهه.

ـ عدت أخيراً!

ـ تأخرت عليكِ؟

مد ذراعيه ليحتضنها فما كان منها إلا أن رفعت ذقنها بأنفة مبتعدةً عنه، رفع حاجباً وأخذ ينظر إليها، لا.. لا.. ليس نظراته تلك! هربت منه ومن نظراته خارجةً من المطبخ، تلكأت في خطواتها منتظرةً أن تسمع صوت خطواته خلفها، لا شيء، نظرت من فوق كتفها لتدرك أنه لم يلحق بها؛ هزت كتفيها بغضب واتجهت الى الشرفة لتتلهى بصب بعض الحبوب في قفص البلبل، مدت يدها لتداعب طرف

ذيل المخلوق الجميل، لكنه هرب منها وأخذ يمشط زغبه الرقيق بطرف منقاره متجاهلاً وجودها، حتى البلبل يتجاهلها!

أدارت رأسـها تنظر للداخل، لمَ لم يتبعها؟ تراها زادت من تمنع الأنثـى حتى جرحت رجولته؟ لكنها غاضبـة! نعم غاضبةٌ وحزينة؛ كانت تريد أن يلحق بها، كان عليه أن يصالحها!

أخذ البلبل يصدح بأنشودةٍ حزينة، إحساسٌ بالوحدة والتلاشي كان مسيطراً عليها، مسحت بضعة دموعٍ بظاهر يدها.. أيهون عليه.. بهذا البساطة حزنها؟

أخذت براكين الغضب تتأجج بداخلها مجدداً، حملت ثورتها وعادت للداخل باحثةً عنه؛ كان جالساً أمام التلفاز يتناول شطيرةً ما.

ـ لماذا لم تناديني لأحضر لك العشاء؟

ـ كنتِ غاضبة.

ـ وتركتني لغضبي!

ـ تركتك لتهدئي ثم نتكلم.

ـ تركتني لأهدأ وحدي! لأمر بكل الأحاسيس المؤلمة وحدي؟ لأحس بالتجاهل والتلاشي؟ تركني أعالج نفسي.. لم لا فأنا طبيبة نفسية ولا أحتاج لأحد أليس كذلك؟ وأين المشكلة أن توجب عليّ ذرف دموع الحسرة لأطفئ بها نيران غضبي! أي حبيب أنت! قيس ما كان ليترك حبيبته تـ....

وضعـت كفهـا على فمهـا بسـرعة لتكتـم الـكلام، صمتت... وصمت معها كل شـيء... البلبل الشـادي، التلفاز الصاخب، حتى انفاسـها اختفت، اختفت كل الأصوات إلا دقـات قلبها التي كانت

تتسارع بصورة جنونية؛ أما هو.. فقد اصطبغت أذناه باللون الأحمر، شـردت نظراته، وأخذت يده اليمنى تضغط على ركبته بشـدةٍ حتى ابيضـت عقل أصابعها، وبصوتٍ هادئٍ حديدي يخفي خلفه طوفان غيرة رجلٍ شرقي نطق الاسم ببطء:

ـ قيس؟

بحثت عن بقايا ثقةٍ أو قوةٍ تلوذ بها، حاولت أن تجنّد غضبها، أن تستند لبقايا من كرامةٍ قابعةٍ بداخلها إلا أنها بالكاد استطاعت أن تصدر صوتاً مرتعشاً متردداً:

ـ هو..... مريضٌ في العيادة.... الجلسات.. أنت تعرف.

إن صمـت رجـلٍ غاضب، لهو أشـد هولاً ورعباً مـن ألف ثورةٍ وصـراع، خصوصاً عندما يكلّلك الإحسـاس بالذنـب؛ حاولت أن تجـد مبرراً فتحت فمها لتقول شـيئاً، إلا أنه رفـع يده ونهض متجهاً نحو غرفه النوم لحقته مسرعةً لتمسكه من كتفه

ـ مروان أرجوك!

نفض يدها عنه بقسوة ورد بنبرةٍ هازئة:

ـ جيدٌ أنك لا زلت تذكرين اسمي!

الأسود القاتم في عينيه اشتد قتامة، لو كان للنظرات أن تقتل لخرّت صريعةً مضرجةً ببركٍ من الدماء، لكن النظرات وإن لم تقطع الجسد، إلا أن لها سلطاناً على القلب، سكينٌ مثلمّةٌ أخذت تتراقص على جدران قلبها مبدعةً في نقش زخارف من ألم وجرح؛ بصوتٍ متناهي الضعف وعينين كسيرتين تلاقيان بلاط الشّقة ناشدته:

ـ زلة لسانٍ هي.. لا تستحق..

ـ زلات اللسان يا سيدتي تفضح مكنونات القلب...

بدأ صوته يعلو

ـ لست أنا يا سيدتي الفاضلة، لست أنا!..

أخـذ صوتـه يعلو حـد الصمـم، الكلمـات أخـذت تتدافع من شـفاهه تصفها بصورة مفجعة، ميدوسّـا قذرة تتطاير أفاعي الخيانة والغـدر حول رأسـها القبيح، كل ما كان يقولـه كان مؤلماً، موجعاً، لكنهـا فقـدت القـدرة على الاسـتيعاب، توقـف عقلهـا تماماً عن اسـتقبال الرسـائل، فيما هرع قلبها إليه يتلقى منـه الصفعات صفعةً تلو الأخرى، صفعاتٍ كانت تُشَـرِّح روحها وتمزقها لقطع صغيرة، دموعهـا أخذت تفر منها، تقفز من على وجنتيها منتحرةً لتبتعد عنها وعن أوجاعها.

ـ مروان أرجوك!

ـ تطردينه غداً، غداً أفهمتِ! لن تسمحي له بعد اليوم بأن يدخل عيادتك! مفهوم؟

كان صوته هادراً مجلجلاً حتى إن الجدران كادت تخرّ راكعةً خوفاً ورهبة..

ـ حاضر.

دلف إلى غرفة النوم ليسحب وسادةً وغطاء، اتجه نحو المكتب صافعـاً خلفـه البـاب ليتركهـا مجـدداً لحيرتهـا، ألمهـا، دموعها، ووحدتها.

يختفي عطرك شيئاً فشيئاً، وتنهدم أسطورة الخلود المتفائلة،
تدق أجراس البكاء واللوعة، قد حانت تلك اللحظة التي ينشطر
فيها القلب.. قد.. حانت لحظة الوداع.

## الجلسة الرابعة

# وداع

# (١)

اللون الرمادي كان يكلل عروش السـماء، الدنيا بأسـرها كانت قـد دخلت مملكـة الظلال الباهتـة، ودّعت الطرقات ألـوان الحياة ورزخت تحت وطأة القتامة والبرود، السـحب في السـماء تعكس سـحباً داخل صدرك، تتراكم الوحدة فـوق الأخرى مطبقةً على كل نفَسٍ يدخل صدرك، لتزرع شـعوراً دائماً بالاختناق؛ صوت الباعة، ضجيج الشـارع، مـواء القطة الهاربة من عجلات سـيارةٍ مسـرعة؛ كل شـيءٍ كان مُقبضـاً، كان ذلك اليوم الذي تودّ لـو تقبع فيه داخل منزلك، هارباً من الدنيا بأسـرها مقلّباً قنوات التلفاز بملل، أو رابضاً في سريرك، هرباً من شعورٍ لا أحد يستطيع تفسيره.

كانت تجرّ خطواتها ببطءٍ على وحدة الطرقات، أحابيل أفكارها اختلطـت وتشـابكت، رمتها جانباً بملل ومشـت نحو العيـادة بآليةٍ مطلقة، محاولةً أن لا تفكر بشيء، ألا تشعر بشيء، فيما اكتنفها ذاك الشعور العام بالكآبة والانقباض؛ نعم هو الطقس ولا بد ما أثر على مزاجها اليوم.

وصلت متأخرةً قليلاً عن عادتها، انهمكت في التحضير للجلسة، علّقت حقيبتها، أخرجت أوراقها من درج المكتب، رتبتها على الطاولة ثم تحركت مسرعةً نحو المطبخ لتحضر الشاي كعادتها؛ عادت للغرفة حاملةً الصينية الأنيقة، وزّعت الفناجين وصحن البتيفور، وما أن استقامت من انحناءتها حتى قفزت من المفاجأة...

«منذ متى وهي هنا؟»

كانت نسرين واقفةً إلى جانب اللوحة الوحيدة في العيادة تتأملها بعينين غائمتين ونظراتٍ شاردة، التوتر غزا أعصاب ياسمين، ربما هو امتدادٌ للشعور بالمفاجأة.

ـ كيف حالك يا نسرين؟

لم تحر نسرين جواباً، كانت غارقةً تماماً في تأمل اللوحة؛ حولت ياسمين اهتمامها نحو اللوحة، كانت لوحةً جميلة، لكن ياسمين لم تكن لتلقي بالاً إليها، فهي بالنسبة لها ليست أكثر من «قطعة ديكور»، أخذت تتعمق في تفاصيلها في محاولةٍ منها لاكتشاف سبب اهتمام نسرين المفاجئ بها.

وردةٌ جوريةٌ فاقعة اللون تفرض حضورها في وسط اللوحة، فيما يسيل منها خيطٌ أحمرٌ قانٍ من الدماء؛ سماءٌ فيروزيةٌ ترفرف في ربوعها بضعة زهيرات ياسمين رقيقة، تتلاعب بها الرياح؛ نبتةٌ شائكةٌ تتلوى متسلقةً جانب اللوحة مستندةً إلى شجرةٍ ما لتغطيها كلياً فيما تتراقص أزهارها النارية على أغصانها كأظافر مغروسةٍ في روح الشجرة المسكينة؛ برعم سوسنٍ صغير انحنى حتى ليكاد يلامس إطار اللوحة، انغلق على نفسه وقبع بهدوء فيما يرقد إلى الجانب الآخر من اللوحة طوطمٌ مكسور..

وفيمـا هي غارقةٌ فـي تفاصيل اللوحة، استلّت نسـرين ألوانها مـن حقيبتها الصغيـرة، وقبل أن تترك لياسـمين فرصـةً للاعتراض أنشبت سكين ألوانها في اللوحة مداعبةً زاويتها السفلى، مرت بضع دقائق وياسـمين مأخوذةٌ تماماً بالتعبير على وجه نسرين، أحاسيس متضاربـة، صورٌ متراكبة مرّت بخيالهـا كومضات البرق، لم تتمكن مـن التقـاط أيٍّ منها... بـل إنها لم تحـاول أصلاً، أبعدت نسـرين سكين الرسم وبسمة رضى كبيرة تتلألأ على وجهها الرقيق.

ـ لـم أعرف مـا ينقص اللوحـة حتى اليـوم! أنا كنـت الوحيدة المفقودة! كنت أنظر لانعكاسـات صوركـم عليها وأبحث عني فلا أراني.

ووسـط صدمة ياسـمين أشـارت نسـرين للعين الصغيـرة التي رسمتها بدقةٍ في زاوية اللوحة واستأنفت:

ـ ها أنا ذي، الآن اكتملت اللوحة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تنطق نسرين بها؛ وعلى عكس كل توقعات ياسمين وافتراضاتها لم يكن صوت نسرين ضعيفاً، خجولاً، خائفاً، متردداً أو حتى مهتزاً، بل كان صوتاً واضحاً واثقاً قوياً تشوبه لمحةٌ من مرح.

فتحت ياسمين فمها لتقول شيئاً، إلا أن ملايين الأسئلة كانت قد تكومـت على أرفف وعيها، ليئنّ الأخيـر تحت وطأة الذهول التام؛ أقفلت فمها وراقبت نسـرين وهي تجمع ألوانهـا وتقبع في زاويتها المعتـادة علـى الأرض، حيث عادت لكراسـها تـزرع خطوطاً هنا وهناك في كرّاس رسمها.

دقيقةٌ مرّت وهي تتأملها بصمت، هزّت رأسها كمن استفاق من حلمٍ ما، وخرجت من غرفة الانتظار؛ عليها أن تنتظر قيس، فهي

لن تطلب منه الرحيل أمام عيون نسرين الفضولية، الموقف كان لا يحتمل أي تعقيدٍ إضافي.

استقرت على أحد الكراسي وأخذت تفكر، هي لم تتوصل بعد لعذرٍ مقنع، ماذا ستقول له! كيف! كيف تبعده عن الجلسات وهو بأمسِّ الحاجة لها! جلّ ما كانت تتمناه هو أن تمسح عن وجهه غمامة الحزن تلك، أن تسحبه خارج صومعة حزنه، علّه يرى نور الحياة مجدداً؛ لقد خرّبت كل شيء.. كل شيء!! الآن عليها أن تطرده! هكذا دونما مقدمات! ماذا ستقول له؟ ماذا؟!..

فُتح باب العيادة، جلست على طرف كرسيها في تحفّز، لقد حانت لحظة الحقيقة، أحسّت بعضلات بطنها تتقلص وبأطراف أعصابها ترسل إشاراتٍ كهربائية موزّعةً الخدر على كل أطرافها؛ لكنه لم يكن قيسٌ من دخلٍ من باب العيادة، بل كانت جوري؛ دخلت تتبعها سحابةٌ عطريةٌ عبِقة، خلعت شالها ورمته على أحد الكراسي باستهتار لتتراقص أنوثتها العارمة ملفوفةً بفستانٍ إسبانيٍّ عاري الكتفين، ابتسامةٌ حمراء تألّقت على شفتيها المطليتين، فكرت ياسمين وهي تتأملها بإعجاب، هي فعلاً لا تعرف أي أنثى أخرى لديها الجرأة الكافية لتزرع وردةً حمراء بين خصلات شعرها بهذه العفوية!.

تتبعت جوري نظراتها ومررت يدها في خصل شعرها الناري بدلال، ثم جلست واضعةً رجلاً فوق الأخرى بثقةٍ؛ التوتر والضيق غلبا على افتتان ياسمين، فمع جلوس جوري هنا أصبح الوضع أكثر تعقيداً، كان عليها أن تدرس أبعاد الموقف بسرعة.

لن تتمكن من الانفراد به في غرفة الجلسات حيث تقبع نسرين مع كراسها وعينيها الواسعتين، لن تتمكن من الانفراد به حيث

تجلس هنا فجوري تصدرت غرفة الانتظار في موقع استراتيجي في مواجهة البـاب تماماً وقريباً منها لدرجةٍ لـن تمكنها من إدارة حوارٍ فـردي، هل تطلب من جـوري أن تدخل لغرفة الجلسـات؟ التقت نظراتها الشاردة بنظرات جوري المتحدّية؛ لا.. لا قِبل ليها بجوري، كانت لتحيك لها من الأسئلة الشائكة ما هي في غنى عنه!

إذاً علـى الأقـل يمكنها أن تنزوي به في ذلـك الركن القصيّ من الغرفـة، محاولةً الانفراد معه في حوارٍ شـبه هامـس؛ زفرت بضيق وركزت نظراتها الشـاردة على جوري، في حين كانت ابتسامة تلك الأخيرة تتسـع وتتسـع لتزيد من غيظها وضيقها، حاولت أن تتملك تعابير وجهها لكن ما رَشَـح من أحاسيسـها كان على ما يبدو كفيلاً بإمتاع جوري التي تمطّأت في جلستها وقالت بنبرةٍ ساخرة:

ـ ياسمنيتي الصغيرة، هل يزعجك وجودي؟

وقبل أن تتسنى لها فرصة الرد على أسلوبها المهين فُتح الباب بهدوء، ودلف الظلّ القاتم الحزين للرجل الذي كانت مهمتها اليوم أن تزيده قتامةً وحزناً.

نهضت من على كرسيها بتوتر، ناسيةً أو متناسيةً نظرات جوري المتفحصة.

ـ قيس لو سمحت، هل لي بكلمةٍ على انفراد؟

وعلـى عكـس المتوقع، لم يرتسـم الانزعـاج أو المفاجأة على وجه قيس، بل إنه رسم ابتسامةً هادئةً على ملامحه الحزينة، ابتسامةً كانت أشد وجعاً من وابلٍ من دموعٍ ونواح.

أشـارت للبقعة التـي سـبق واختارتها، وتبعتـه نحوها بصمت؛ وفـي محاولةٍ لضغط المسـافة، خفض الصوت، وتحاشـي فضول جـوري اقتربت منه كثيراً... كانت المرة الأولى التي تقترب فيها منه

إلى هذا الحد، إحساسٌ غريبٌ اعتراها، لم يكن إحساس أنثى أمام رجل، كان إحساساً من نوعٍ آخر، احتوتها النظرة العميقة من العينين الطيبتين، مسحة الحزن الخفيفة كانت موسيقى هادئة تتوج لحظةً من اللحظات التي لا تنسى.

بحثت مطولاً عن كلمات تنطقها، عليها أن.. تهرب من تلك النظرات، مروان.. مروان.. عليها أن تركز، لأجل مروان..

ـ قيس، أريد أن..

صمته كان بليغاً ونظراته كانت أوسع من الحياة بأسرها، لقد كان نوعاً خاصاً من البشر، النوع الذي لا يمر في حياتك إلا مرةً واحدة.

ـ الجلسات... لم تعد.. أريد أن أقول..

تابعت متلعثمةً في محاولةٍ يائسةٍ لإقناعه بفكرةٍ هي ذاتها لم تتوصل لها بعد.

ـ لن.. أتمكن من.. ليست هذه الجلسات مناسبةً.. لمشكلتك.. عليك أن..

لم تتغير نظرته، لم يحاول أن يقاطعها، أن يستعجلها، لم يحاول حتى أن يستفهمها، قلبها كان يئن تحت وطأة الوجع؛ زفرت بحرارة زفرةً حررت سيل كلمات من بين شفتيها:

ـ اخرجْ من تلك الدائرة! حرر نفسك منها، قيس صدقني، أنت تستحق أفضل من هذا.. أنت..

لم يسبق لها أن فكرت في حلٍّ لمشكلته لكنها أحست بالكلمات تندفع من داخلها مباشرةً كمخزونٍ طال احتباسه:

ـ أنت رجلٌ مثالي، حرر نفسك من عبوديتها، امنح نفسك فرصةً أخرى، حاول أن..

قطع سيل كلامها تأرجح الباب الذي دخلت منه جلنار، رفعت

حاجبيها بتعجب للمشـهد غيـر المألوف؛ ألقت نظراتهـا المتعالية المعتادة على جوري، دخولٌ جديد بجلنار؛ لكنه ليس دخول جلنار ما كان قد أمسـك لسـان ياسـمين، بل كان النظرات التـي تطل من ورائهـا، خـارج الباب، عند مدخـل العيادة بعيداً، حيـث كان يقف مروان، تكتسي سحنته تعابير آمرة وهو ينظر لياسمين.

أطرقت رأسها، ثم عادت بعينيها نحو قيس الذي كان هو الآخر ينظر بعيونٍ شاردةٍ نحو الباب الذي تركته جلنار مفتوحاً؛ نعم لقد رأى مروان، لقد فهم الأمر برمته؛ حاولت استجماع بأسها مجدداً لتعود لمهمتها في إرضاء مروان، مهما كان الثمن! مهما كان الثمن.

ـ قيس.. خلاصة الأمر..

هذه المرة لم يكن يتابعها، ظلّت عيناه غارقتان كلياً وراء إطار الباب، جلنار كانت أيضاً لا تزال واقفة، تحملق في وجه جوري بفضول، شيءٌ ما... شيءٌ ما كان قد لفت انتباهها.. «ركزي يا ياسمين.. ركزي بالله عليك! ركزي»

ـ لن أتمكن من استضافتك في الجلسات بعد اليوم.

قالتها سريعةً مقتضبةً كمن يرمي بقنبلةٍ كان يخشى انفجارها في أي لحظة؛ العينان الحنونتان عادتا لاحتوائها مرّةً أخرى، الإحساس الغريب ذاته.

ـ أفهم يا ياسمين، أفهم..

ذاك الصوت العميق... ذاك الصوت!

ـ فقط عديني شيئاً واحداً.

حرّك رأسه وأشار بنظراته نحو جوري وتابع

ـ خذي حذرك منها، أرجوكِ.

عادت نظراته تحملق خارج العيادة، تبعت نظراته، كان مروان لا يـزال هناك واقفاً وقد زالت النظرة الآمـرة من على وجه، في الواقع هـو لم يكن ينظر لها هذه المرة، لم يكن ينظر لقيسٍ حتى، كان ينظر لجـوري ولجوري فقـط، نظراته لها حملتها لعالـم منفصل متأججٍ بنيرانٍ وحدها الأنثى تكتوي بلظاها بهدوء، فيما تتصاعد الدماء إلى وجهها لتحيلها شـيطاناً صغيراً، خارجاً مـن جنته الأبدية، خارجاً.. من وهم الحب؛ لقد كانت نظراته نظرات رجلٍ يشتهي امرأةً أخرى؛ وككل الشـياطين كان عليهـا أن تعـود لـلأرض، صـوت اصطدام وكلمات اعتذارٍ مبتورة كانت الرحمة الإلهية التي تمهلها وتخرجها آنياً مـن جحيمها الأنثوي؛ كانت سـيدة المواقـف المحرجة، طبعاً كانت سوسـن من اصطـدم بقيسٍ وهو يحاول الخـروج من العيادة بسرعة.

ـ أعتذر... أعتذر.. أعتذر قيس.. لم..

اللون الأحمر كالعادة أخذ يغزو وجنتيها الممتلئتين.

ـ لا عليك يا صغيرتي، لا عليك.

ـ أين أنت ذاهب؟ و...

جالـت بنظرها فـي غرفة الانتظـار حيث تجلس جـوري، تقف جلنار، تسـتند ياسمين إلى الجدار في ركنها القصِيّ توقفت نظراتها عند وجه ياسمين الذي كان قد اكتسى بتعابير لم تكن قد اعتادت أن تراها على وجهها السمح.

ـ ياسمين؟.. ما الذي..

متجاهلـةً وجودهـا تمامـاً نهضـت جـوري، ودخلـت غرفـة الجلسـات، تبعتها جلنار وهي تمطر ظهرها بنظراتٍ هازئة، أطرقت ياسمين نظراتها وتمتمت.

ـ قيس.. لن يكمل معنا الجلسات يا سوسن.. قيس..
شهقةٌ ندّت عن سوسن، قاطعها قيس قائلاً
ـ لا بأس يا عزيزتي، لدي سفرٌ هام ولن أتمكن من..

وقبل أن يتم جملته ارتمت سوسن بين ذراعيه باكية؛ نعم كانت هي أيضاً تودّ لو ترتمي بين ذراعيه باكية لكن.. مروان... من أجل مروان.. كان عليها أن تدعه يذهب، نظرت إلى حيث كان مروان يقف، لكنه كان قد رحل، لماذا جاء حتى العيادة! ألم يكن يثق بها؟! حولت عينيها نحو قيس؛ ابتلعت دموعاً كادت تترقرق بين أجفانها، أومأت برأسها لقيسٍ الذي بادلها الإيماءة فيما أخذ يربت على كتف سوسن في محاولةٍ لتهدئتها؛ استدارت على عقبيها ودخلت غرفة الجلسات، تناولت أوراقها وجلست دون أن تنظر لأي أحد؛ تبعتها سوسن بعد عدة دقائق بعينين حمراوين دامعتين، وجلست صامتةً في كرسيها.

سحبت ياسمين نفساً عميقاً «اهدأي يا ياسمين... عليك أن تهدأي»

رفعت عينيها لتواجه السيدات الأربعة، وبنبرة واثقةٍ هادئة بدأت بالكلام.

ـ أحلامنا عصافير ملونة، اتخذت من ذواتنا وطناً لها، من حقها أن ترفرف بأجنحتها المخملية في سماءٍ من ضحكاتٍ وتفاؤل، لكننا نأسرها خلف قضبانِ شكوكنا وآلامنا؛ نكبّلها ونتهمها بالفشل، رافضين الاعتراف بأننا نحن من فشل بالاعتراف بها.

خفضت ياسمين عينيها وأخذت تعبث بأوراقها، ربما.. شاب صوتها شيءٌ من التردد، لكنه كان تردداً خافتاً لم يشعر به أحدٌ غيرها.

ـ قيسٌ ليس مثلنا، قيس.. منح براح روحه كليّاً لحلمٍ وحيد،

يرفرف مالئاً كينونته؛ قيس ليس مثلنا، قيسٌ يسعى نحو حلمٍ مستحيل، قد يكون سابحاً في ظلماتٍ من أملٍ مجهول الهوية، أوَ قد يكون نور إيمانه بحبه قد جلى عتمة الواقع منيراً له درباً لا يراه سواه؛ قيسٌ لم يفقد روان، فهي ما تزال ملكة حياته وروحه، هو لا يعيش ألم فراقٍ أو خسارة، ليس مثلنا لذا كان عليه أن يرحل، فقد تمكن من التأقلم مع واقعه، تمكن من الخروج من دائرة اليأس هائماً كالفراش نحو نورٍ قد يحرقه، مرفرفاً بجناحي أمانيه نحو أملٍ لا يموت، ربما... ربما كان أملاً يستحق الموت، ربما يكون حلمه من أشد الأحلام قسوةً وظلماً.. حلم حبٍ من طرفٍ واحد، إلا أنه صمم على أن يمنح حلمه ذاته ليكون طوعاً له فتملكه الحلم وتملّك روحه؛ لم يعد قيس بحاجةٍ لهذه المجموعة.. لهذا رحل.

صمتت ياسمين وأخذت تلتقط أنفاسها، لقد كانت في معركةٍ حقيقية، معركةٍ طالما نخوضها لتبرير عقبات حياتنا وما يرهقنا من خياراتنا، نبرره بذكاءٍ جبار مستنفذين كافة الحيل والألاعيب لنزوّر الكلمات ونلتف حول واقع ضعفنا، فنُفصّل الواقع على مقاس مبادئنا وتلك الابتسامة الزائفة على وجوهنا تقول «نعم أنا بخير»؛ وكم كان تبرير ياسمين ناجحاً، وكم كانت حججها مقنعة.

- هغاء!

من يجيد استخدام تلك المفردة المتعجرفة خيراً منها؟ جلنار بالطبع كانت من قالتها من طرف فمها وهي تعتدل في جلستها:

- هغاء!.. هغاءٌ يا ياسمين! أنتِ قلتِ أننا في هذه الجلسات ندعم بعضنا بعضاً، قلتِ أننا نستند إلى بعضنا، أننا بحاجةٍ لنستمع لتجاغب بعضنا، نحتاج لوجود كلٍّ منا دعماً وسنداً بوجه صعوبة الحياة، أليست هذه كلماتكِ؟

يداها كانتا تلوحان بعصبيةٍ لتهتز أساورها الذهبية مصدرةً رنيناً أشد عجرفةً من صوتها وكلماتها.

ـ حتى وإن كان قيس ليس بحاجةٍ لنا، إلا أننا بحاجةٍ له ولدعمه! أنا بحاجةٍ له!.. كيف؟ كيف سمحتِ له أن يتركنا! ومن سيتركنا بعده؟ هي؟

هدأت حركة يديها جزئياً فيما اتجهت سبابتها مشيرةً نحو نسرين التي كانت قابعةً في زاويتها ترسم اسكتشاتها الدقيقة بنشاط، مسلطةً كل اهتمامها على جوري غير عابئةٍ بكلمةٍ من كلمات جلنار.

ـ هي؟

انتقلت يد جلنار بإصبعها المغرورة نحو سوسن التي كانت تبتلع قطع البتيفور من على الطاولة بنهم عجيب، مالئةً ثيابها بالفتات في توترٍ مجنون؛ تجعّد أنف جلنار باشمئزاز فيما انكمشت سوسن وكسى اللون الأحمر وجهها لدرجة الغليان؛ تحركت السبابة نحو آخرهن، نحو جوري وقبل أن تنطق استبقتها الأخيرة قائلةً:

ـ فعلاً أنا سأترككم الآن!

وقفت، حملت حقيبتها وعلبة سجائرها التي لم تمسسها في هذه الجلسة قط، ثم التفتت نحو جلنار وتابعت ضاحكةً:

ـ وقبل أن تصابي بسكتةٍ قلبيّةٍ لشدة السعادة، أحب أن أبشّرك بأنني سأعود في الجلسة القادمة.

اختلست نظرةً نحو ياسمين ثم نظرت للباب متابعةً:

ـ كل ما في الأمر أنني تذكرت.. موعداً مهماً.. كنت قد نسيته.. لكم أن تتابعوا مبكاتكم، رحل قيس! يا للمأساة.. فليرحل! ما همكم! هو رجل، وجميع الرجال يرحلون على كل حال!.

هزت كتفيها ورحلت، رائحة عطرها المثيرة تسبح من خلفها

وصـوت كعـب حذائها يطـأ على الأعصـاب برتابةٍ مدمّـرة، لتترك ياسـمين مع سوسـن التي أخذت تقضـم البتيفور بأسـنانها بحركةٍ ازدادت توتـراً وقلقـاً؛ مع نسـرين التي توقفت عن الرسـم، ضمت كراسـها إلى صدرهـا وأخذت تحدق بياسـمين، ومـع جلنار التي حاصرت ياسمين بنظرات قاضٍ يتنظر سماع شهادة متهمٍ تم إطلاق الحكم عليه مسبقاً.

عندما تتوتر أعصابك دوماً، دوماً لا بد لك من كبش فداء؛ ضحيةٌ تصبّ جام توتّرك وقلقك عليها مفرّغاً طاقةً طال كبتها بداخلك، معلقاً عليها غليان أفكارك واحتراقك الداخلي.

ـ سوسن، توقفي!

خرجـت الكلمات من بين أسـنان ياسـمين محملـةً بأكوامٍ من الغيظ والغضب، لتتجمد يد سوسن، نظرة رعبٍ تلتهم إطار وجهها بالكامل؛ وقعت قطعة البتيفور الأخيرة من يدها، طارت الدموع من عينيهـا وهي تهبُّ واقفةً وتندفع خارجةً مصطدمةً بالطبق الذي تناثر أشـلاءً على الأرض، يختلط صوت تكسـره بصـوت نحيبٍ مكتوم سافر خلف سوسن ليترك بقعاً داكنةً من الألم على روح ياسمين.

لربما شاء القدر أن يهيئ لجلنار الجوّ المثالي الذي كانت تحتاج له؛ حولت نظراتها نحو نسرين القابعة في زاويتها بهدوء مفكرةً «لا بأس من وجودها، فالفنانون يعرفون كل شيء، ثم أنهم على كل حالٍ لا ينطقون إلا بلسان فنّهم الذي يكاد يسبقهم في الغموض والكتمان؛ لا بأس أبداً من الكلام أمامها» حزمت أمرها بسرعة وقبل أن تتردد مجدداً خرج النداء من بين شفتيها:

ـ ياسمين..

عينان باردتان شـاردتان رفعتهما ياسمين نحوها، لتطالعها نظرةٌ غريبةٌ جديدة في عيون جلنار، نظرةٌ كانت كفيلةً باسـتحضار الطبيبة النفسـية من تحـت ركام مشـاعرها المتضاربة؛ كانت نظـرةً حائرةً ضعيفةً، مستنجدة.. نعم أخيراً جاءتها جلنار تطلب العون.

رسـمت ابتسـامةً مشـجِّعةً على وجههـا وردّت بـذاك الصوت القوي الواثق الذي دوماً ما يجيد نحته الأطباء النفسيون:

ـ نعم يا جلنار؟

ـ كنت.. كنت أفكِّر بسؤال الجلسة السابقة، فكّرت كثيراً.. قطعاً تعرفين.. الموضوع أنني..

نظرت لياسـمين مسـتنجدة، كانت تريدها أن تصـوغ الكلمات عنهـا، أن تلتقط حبـل أفكارها وتجذبه عنوةً لينفـرط أمامها عقد ما تخفيـه فـي غياهب روحها؛ لكن ياسـمين ظلّت تنظر لها والبسـمة مرسـومةٌ على وجههـا، مانحةً جلنار اهتمامها كامـلاً دون أن تنبس ببنت شفة، فقد كانت تدرك تماماً ضرورة تركها تفك حبائل ترددها لوحدها طائعةً لترصف أمامها المشـاعر والأحاسـيس الواحدة تلو الأخـرى، عليها أن تعبر عن ذاتها لوحدها بشـكل كامل، فكل كلمةٍ تنطقها لها أهميتها ودلائلها.

أسر التوتر جلنار التي أخذت تخفي خصل شعرها خلف أذنها مرةً تلو الأخرى في محاولةٍ لاستجماع شجاعتها..

ـ هي ذات القصة التقليدية، تعرفينها، الكل يعرفها: فتاةٌ ذات مال وشابٌ أرستقراطيٌّ مفلس عنوان القصة «زواج مصلحة» زواجٌ كان قوامه أتوناً لاهباً وجدت نفسي أتلظى فيه؛ كمية الاحتقار والامتهان! «لماذا تكلمتِ؟» «لماذا تحركتِ» «سوقيةٌ أنتِ» «ما كان لابننا أن يُسيء لنسب عائلتنا العريق» جملٌ وتلميحاتٌ كثيرةٌ

حطمت كل ما كنت قد آمنت به يوماً، كنت لا أزال ضعيفةً حينها، كنت لا أزال..

توقفت عن العبث بخصلات شعرها في حين أخذت رجلها تهتز يمنةً ويسرة في حركةٍ عصبية سريعة.

ـ ماذا ألبس، ماذا أحب، ماذا أكغه، كيف أتنشق الهواء!

كانـوا يمتصون نقـودي كالبغاغيث ومعها يستنزفون الإنسانة بداخلي، لذا وأدت روحي بنفسي وبدأت ألعب لعبتهم، لعبتها حتى سبقتهم وتفوقت حتى غلبتهم؛ سيدة المجتمع الأولى أصبحت، بنقودي أصبحت الغُؤوس تحت كعب حذائي، امتصصت أموالي منهـم مجدداً حتى آخغ قغش، حتى عـادوا يتذللون على أبوابي أنا، أنـا جلناغ، عادوا للاستجداء، استجداء عطفي عليهم، يلتمسـون شـيئاً من بغيقـي ولمعاني؛ أصبحـت أنا الملكة وما هم إلا حاشـيةٌ ضئيلـة؛ بتُّ أعغف مـا الذي أقوله، وكيف ومتى، أسـتاذةٌ في علوم فتنة المجتمع، في الغقص على نوتات التوقعات الأغستقغاطية، أنا جلنـاغ.. أنا الملكة! تنحني أمامي الغؤوس وأسـمو وأعلو، لا! لن يذلني أحدٌ ثانيةً، أنا لست أقلَّ منهم، أنا جلناغ!

لكنني يا ياسمين بدأت أفتقد لبعض الأشياء.. أفتقد الضحكة الصادقة من القلب، أفتقد للاستمتاع بجمال زهغةٍ نابتةٍ على زاوية غصيفٍ ما، أفتقد للتصفيق بسعادة لمنظغ حبات المطَغ على أكفّ الشجغ، للقفز باستهتاغ في المياه الموحلة، اشتقت لانعكاس صوغتي في مغآةٍ أَعْغِف ملامحي فيها؛ ما عدت أنا أنا! أبحث عني فلا أغاني بل أغى ما يغيدونني أن أكون، لقد خسغت ذاتي! لقد فقدت نفسي، أنا يا ياسمين أنا من غابت عني، أنا من أفتقد، لكنني أعلم أن في ما أشتاق له دَمَاغي، ولأنني أعغفني جيداً وأعغفهم

أكثغ، أخافهم، أخاف مما خلف ألسنتهم السامة، فهم لن يتكلموا أمامي، ليس بعد الآن، لكن لو تسغِّب شيءٌ من ذاتي إليهم لو! سيلوكونني، سيمضغونني في أفواههم، سيحطمون ما بنيته خلال سنين طوال، لتأتيني الأخباغ طعناتٍ تُسلَّط نحو كغامتي مع نظغة شماتةٍ بغيضة.

لا.. أبداً! لن أسمح لهم.. أنا.. لست مثلها، تلك الجوغي، لا تأبه بهم ولا بكلامهم، جوغي لها عالمها، أما أنا فهم يقبعون أسفل عغشي فاتحين أفواههم السوداء كوحشٍ بغيض ينتظغ مني زلة قدم، أحسدها، أحسدكم.. أحسدكم جميعاً.. أنا.. أنا...

صمتت فجأة، توقفت رجلها عن الاهتزاز أطرقت رأسها لدقائق وحين رفعته، كان القناع الجليدي قد كسى وجهها مجدداً، رسمت ضحكةً باردةً على شفتيها، وضعت نظارتها الشمسية على عينيها.

ـ أليس هذا ما كنتِ تودين سماعه؟ هاكِ، أظنني أعطيتك هذه المغّة خطاباً مشحوناً بالعواطف، وأداءً أفضل وأقوى؛ لكِ الآن أن تختاغي أي الجوابين تصدقين.

نهضت رامقةً نسرين بطرف عينها، فيما كانت تلك الأخيرة ترسم اسكتشاً لجلنار التي ظهرت في هذه الجلسة للمرة الأولى، وغالباً الأخيرة.

ـ شكراً يا دكتورة، أراكِ في الجلسة القادمة.

ارتدت وجهها المتعجرف، ورحلت.

أخذت ياسمين تتأمل الباب الذي خرجت منه لبضعة دقائق شاردة، نعم الآن يبدو كل شيءٍ منطقياً.

بخفّة قطةٍ سيامية نهضت نسرين وغابت عن عيني ياسمين الشاردتين في حين كانت الاخيرة تتشبث بحافظة أوراقها بقوّة غير

طبيعية، كمن يمسـك بالقشة الأخيرة الفاصلة بينه وبين الغرق، نعم كانت ياسمين تخشـى أن تغرق في بحر مشاعرها المتلاطم، كانت تحاول أن تُذكِّر نفسها بأنها قوية، بأنها طبيبةٌ نفسية، بأنها مركز الثقل في هذه الجلسات وبأنها....

لكـن ذاك الحضـور الطاغـي كان يسـحق أفكارها ومشـاعرها بالجملـة، فيما اندفعت أمـواجٌ عاتيةٌ من الشـعور بالذنب لتعصف بـكل ما أوتيت مـن مقاومة، نظرت للكرسـي المعتـم بتوتر، خيال قيس كان يجلس هناك وبسـمةٌ سـاخرةٌ تعلو شفتيه، نعم كان يسخر منها ومن كل أكاذيبها، كان يرى فيها ضعفها؛ تحول توترها لغضب هـادر، تملكتهـا الثورة كاملةً، لم تعد ياسـمين الدكتـورة، هي فقط ياسمين الإنسانة كانت تشـعر بدوامات الألم تحتل ذاتها وبالظلال القاتمة تبتلعها بوحشـية، نهضت غاضبةً ونظرة تصميم تتراقص في عينيها فيما تناثرت أوراقها على الأرض لتئنّ بصوتٍ ورقيٍّ خفيضٍ تحت وقع خطواتها المتجهة نحوه، نحو شـبحه، نحو خياله وذكراه المتمثلة في كرسـيه ذاك؛ كان عليها أن تلغي وجوده بسرعة! صوتٌ شـبه الزئير تحرر من حنجرتها وهي تسحب الكرسي وتدفعه خارج غرفة الجلسـات، سـترميه، أجل سـترميه خارج العيادة بأسرها هو وخياله سـوياً، لن ترى عينيه الحزينتين تحدقان فيها ويداه ترتعشان أمامها بحزنٍ بعد اليوم، لا! لا سـترميه خارجاً، خارج حياتها للأبد! صمت زئيرها مع صمت صوت عويل أرجل الكرسي على الأرضية الصقيلة، لطّخ الصمتَ صوتُ لهاثها المرتفع، وهناك.. في منتصف غرفة الانتظار تهاوت على الكرسي باكيةً.

اسـتغرقها البكاء بضعة دقائـق، كان الصداع يكلـل آلامها حين نهضـت ثانيةً لتزيح الكرسـي جانبـاً، دفعته بهـدوء مُنهك ليصطف

غريباً بين كراســي غرفة الانتظار؛ ليتنظــر.. لينتظر هو وصاحبه هنا، لـم يعد له مكانٌ في جلســاتي خاطبت نفسها وهي تلقي عليه نظرتها الأخيــرة، دخلت غرفة جلســاتها، حملــت حقيبتهــا وخرجت من العيادة دون أن تنظر له مجدداً.

## (٢)

لـم يكن موجوداً حين عادت للمنـزل، بالطبع لم يكن موجوداً، فالغيـاب صـار توأم اشـتياقها له، وصقيـع وحدتهـا كان يجمّد كل أحاسيسـها؛ هي تعمّدت التلكؤ في الطريق، وتعمّدت مطّ السـاعة وشـدّ دقائقها محاولةً أن تزرع غياباً يطغى علـى غيابه دونما فائدة، فها هو غائبٌ كالعادة، دوماً غائب.

ـ اشتقت لك!

تردد صـدى صوتها في المنزل المكسـو بالوحـدة، صورته في بروازهـا الذهبي اللامـع كانت ترد علـى صدى الصوت بابتسـامةٍ بلهاء.

ـ اشتقت لك! كفاك! كفاك غياباً اشتفت لك!

لملمت أنينها ودلفت إلى غرفتها تصارع طوفان مشاعرها بذاك الدرع الذي طالما تمرست النساء في تفصيله وتناقله جيلاً بعد جيل، الواجبات المنزلية؛ ففي مكانٍ ما بين سيول دمعٍ تهرقها حبة

بصلٍ مذبوحة بقسوة، وبين انسياب المياه على أصابع تمسح البقايا علىٰ الزجاج الرقيق، كانت ياسمين تمسح بقايا الأفكار العالقة على وعيها المرهق المنهك بالاحتمالات، هناك في مكانٍ في مطبخها، غالباً ما تجد المرأة شيئاً من نفسها الضائعة وثقتها المطعونة، فتسترد إحساسها بوجودها بعيداً عن كل الخيبات الأخرى.

بجبهةٍ مرصّعةٍ بحباتٍ من العرق وبقلبٍ مرصّع بموجاتٍ من الحنين قصدت الشرفة بعد إنهائها كل ما يمكن عمله في المطبخ، تلوذ بالشرفة في زيارةٍ للقفص وقاطنه الصغير؛ وهي تغير له المياه وتصب له الحبوب؛ تساءلت لماذا كان بلبلها يرمقها بعينيه السوداوين الصغيرتين الحزينتين بينما يرفرف جناحاه القصيران بتوتر؟ لماذا؟ لماذا كان يصدر ذاك النداء الحبيس كلما مررت أصابعها على باب قفصه؟

وكأبطال الروايات وقصص المجلات المصورة وكتب القراءة المدرسية طافت بخيالها تلك الصورة المثالية وهي تحرره من محبسه وتسلم جناحيه للفضاء الواسع، لكن أكواماً من الحقائق العلمية تراصّت مكبّلة الصورة الرومنسية الشفافة فهو ليس إلا طيراً صغيراً ولد في قفصٍ ونشأ فيه ولا يجيد الحياة إلا خلف القضبان، أدارت ظهرها للعيون الحزينة والزغب الأصفر الرقيق، واستندت إلى جانب الشرفة فيما سهمت نظراتها في سماء المساء والنجمة الوحيدة التي لمعت لتغازل وحدتها، بريق النجمة ذكرها لسبب مجهول بتلك الغمازة التي تراقص على وجنته الحبيبة عندما تُسعده، مدّت يدها للسماء كأنما لتقرص وجنته، فارتدت يدها خاوية؛ إحساسٌ بالمرارة والشوق الأليم غزاها.

ـ أكرهك! أكرهك! أكره عملك الذي يأخذك مني كل يوم، أكره

بعدك، أكره اشتياقي لك، أكره ساعاتي، أكره دقائقي، أكره أنفاسي، بل أكره نفسي حتى عندما تكون بعيداً!

لكم.. تمنيت أن أكون جنيّة يا مروان... جنيّةً أسكنك فآسر روحك كليّاً، فلا تتكلم ولا تتنفس إلا من خلالي! أن أعانق سيمفونية وجودك وحدي للأبد.

كان صوتها عالياً يخاطب النجم، أو السماء، أو ما خلف السماء... فيما كان البلبل يصدح من خلفها يرافق شدوها الحزين بنشيد يفوق شدوها حزناً وشوقاً، تراهَ يشتاق لوليفٍ هجره؟ «لا.. لا. لم يهجرني مروان» هتفت ذاتها والثورة تشتعل في أركانها فيما بدأ شعرٌ ناريٌّ يحاصر أفكارها تتراقص فيه وردةٌ مزروعةٌ ببوهيميةٍ رشيقة لتعانق خصلاته المتمردة.

دخلت مسرعةً، أطبقت الباب خلفها بعنف حابسةً أفكارها خارجاً مع شدو بلبلٍ حزين وهربت مسرعةً نحو التلفاز، فهي كانت تحتاج للضجيج، أيَّ ضجيجٍ يعلو على ضوضاء أفكارها وتحليلاتها أخذت تقلّب القنوات بسرعةٍ مجنونة؛ مشاهد كثيرة، ألوانٌ وصور، مشاهد سريعة تهرب بها من نظرة.. نظرةٍ ظلّت طوال اليوم تهزأ منها ومن كل ما تفعله، تقف متربصةً في أزقة عقلها متربصةً لتقتنص أي أحساسٍ بالأمان.. نظرة.. نظرة رجلٍ يشتهي امرأةً أخرى.. وفي عيون الأخرى.. نظرة ذنب، نعم كانت نظرة ذنبٍ في عيونها تلك الأنثى!

كان نزالاً عارماً بين كل قدراتها وقواها للتجاهل والهروب، وبين الهجمات النفسية اللاواعية اللا منطقية التي كانت نفسها تمطرها بها، وأخيراً وأمام أحد المتوجات الهوليوودية تسنى لها الهرب، فاستسلم وعيها للقصة المحبوكة والمشاعر المتدفقة

فيما نجحت مشاهد اللحم المتطاير والدماء المتناثرة في شهوته العدوانية في تعليق أهداب اهتمامها، فيما استكانت كل مخاوفها وشكوكها في ذاك الركن القصيّ من لا وعيها بانتظار فرصةٍ جديدةٍ ليثور عليها وعلى عالمها بأسره.

وعلى الرغم من عنف المشاهد على الشاشة الفضية إلا أنها غرقت بعد وقت قصيرٍ في سباتٍ قلق، ينضح باللون الأحمر بدرجتيه:

الأحمر الدموي القاني

والأحمر الناريّ الجشع.

استيقظت صباحاً على رائحةٍ لذيذة، رائحةٍ طازجة، كرواسان الجبنة الدسم، مربى الفراولة الشهي وإلى جانبهما كأسٌ من الحليب المحلّى تتراقص فوقه بضعة ذرّاتٍ من حبيبات النسكافيه: الفطور المثالي؛ ليس هذا وحسب، فعلى الصينية الأنيقة على الطاولة أمامها تغفو بهدوءٍ وردةٌ حمراء رقيقة مزينةٌ بشريطٍ وردي.

كان مروان إلى جانبها على الأريكة، لا تدري كيف ومتى أصبح رأسها على رجله، أصابعه مغموسةٌ في شعرها تراقص تموجاته بحب، والبسمة الصامتة على وجهه كانت تصرّح لها: أعذريني

ـ صباح الخير.

ما أن نطق حتى مسحت الابتسامة المدلّلة من على وجهها، استقامت في جلستها ساحبةً خصلات شعرها من يده، بل إنها جدلت شعرها بسرعة واستلقت على الأريكة مجدداً وهي توليه ظهرها وتغمض عينيها بعنف، وفي حين كان قلبها يقفز فرحاً وشوقاً لعودة حبيبها، إلا أنها أجبرته على الصمت مدّعيةً النوم..

ـ حبيبتي، أنا آسف... لقد....

ودون أن تحرك رأسها ردت عليه بصوت بارد كالثلج:

ـ لا! لن سمع، لا أريد أن أسمع! أن تقضي الليل بطوله خارج المنزل دون اتصالٍ حتى! لست أريد أن أسمع شيئاً منك!

تنهيدةٌ حارّةٌ ندّت عنه أتبعها بنبرةٍ متوسلة:

ـ الفطور سيبرد!

ـ ....................

ـ ........................

........................

...........................

طال الصمت أكثر مما توقعت! هل أغضبته؟ بالتأكيد هو متعبٌ، مرهق، وأغلب الظن أنه لم ينم طوال الليل! ومع ذلك أحضر لها الفطور الذي تحبه، ويحاول أن يصالحها! تباً.. كان عليها أن....

ـ مروان؟

استدارت باحثةً عنه، لم يكن موجوداً إلى جانبها، لم يكن موجوداً في الغرفة بأسرها!

فركت عينيها مراراً لا لتمسح الدموع فيهما بل لتحاول أن تغير الصورة! لكنه في كل مرةٍ لم يكن هناك!

ـ مروان!

قفزت عن الأريكة وأخذت تفتش الشقة بهستيريا جنونية

ـ مروان أين أنت؟

في غرفة النوم، في المطبخ، في غرفة الطعام، في الشرفة، حتى في الحمام! بحثت عنه في كل مكان، عادت لغرفة الجلوس، لم يكون موجوداً، لم يكن في أي مكان! حانت منها التفاتةٌ للطاولة التي تتوسط الغرفة أمام الأريكة، لم تكن هناك أيضاً، صينية

الفطور.. الكرواســان والمربى، الوردة الحمراء، لا شــيء كله كان قد اختفى!

ـ ليس هنا! لم يكن هنا! كنت أحلم! هو لم يعد بعد!

سقطت على ركبتيها وأجهشت في البكاء.

مضـى يومهـا مشـحوناً بموجـاتٍ متناوبةٍ بيـن الحـزن، التوتر والغضـب؛ فيما كانت تحترق في صدرها فراشـات الأمل الواحدة تلو الأخرى.

سيأتي بعد قليل وسنفطر سوياً؛... لم يأتِ، سيعود ظهراً ولا بد.. لا؟ عصراً!.. سيأتي عصراً؛... إذاً لا بد من أنه سيأتي قبل أن يحل الظلام!.. لا لن يغيب ليلةً أخرى!

وفي آخر سويعات الليل غفَت على وسادةٍ من دموعها، وسادةٍ لم يشاركها بها أحد.

صباح اليوم التالي استيقظت، لم يكن صباحاً بالضبط فقد طالت غفوتها كما طال سهادها في الليلة الماضية؛ الشمس كانت تتربع على عرشها في صدر السماء.

نظرت إلى ساعة معصمها، لقد اقترب موعد جلستها؛ فكرت كثيراً في أن تلغي الجلسة، لكن شيئاً ما بداخلها كان يمنعها، ثم إنها.... كانت تريد أن تراها.. كان من الضروري أن تراها!

كانت تدرك تماماً بأنها ليسـت في حالةٍ ذهنية أو نفسـيةٍ أو حتى جسـديةٍ تسـمح لها بسـماع همـوم الآخرين، نهضت واستشـارت مرآتها.

وجهها الشاحب، نظراتها الممزَّقة، الدوائر السوداء حول عينيها المنتفختين، هزّت كتفيها بيأس؛ لقد تأخر الوقت على إلغاء الموعد على كل حال.

حزمت أمرهـا وأخذت ترتدي ثيابها بعنايـةٍ فائقة، ثوبٌ صوفيٌّ أبيـض رقيق، معطـفٌ رماديٌّ طويـل والحجاب المعـرّق باللونين الأبيض والأسـود بالإضافة إلى حذائها الأسود الأنيق؛ لمساتٌ من اللون الوردي على وجنتيها لترسـم حياةً وهميةً على البشرة الميتة، أبيـضٌ تحت العينين وأسـودٌ علـى الجفنين ليبـدوا ثقيلين لا بفعلِ الحـزن والهموم بل ثقيلان تحت وطأة السـحر والغموض، وأخيراً طلاء شـفاهٍ خمريٍّ ليؤطـر الكلمات الخارجة من فمها ويكسـوها بطبقـةٍ مزيفةٍ مـن الثقة، تمـت عملية التحـول بنجاح، ألقـت نظرةً غاضبةً على الشقة الفارغة.

«سـيكون هنـا عندما أعـود» أخبرت نفسـها ثم أطبقـت الباب خلفها.

أدمنت القلب مستعرةً أتلظى بنيران شوقي لك، أدمنت البكاء على المقفل من أبوابك راجيةً رحمةً لا تطال قلبك، أدمنت سيدي الانتحار عاريةً على عتبات إهمالك المنتظم.. أدمنتك.. حتى الموت.

# الجلسة الخامسة

# إدمان

## (١)

حياتنـا العصرية المتخمـة بالتكنولوجيـا، الموبـوءة بالتواصل الالكتروني والغزو الاجتماعي، حياةٌ لا مكان فيها لأي لحظةٍ تخلو بها إلى نفسـك حتى.. في بيت الخلاء! قد تجد نفسك تُفرغ أمعاءك وجهـازٌ ما معلـقٌ بين أصابعـك وأنت تـدق عليه الرسـائل بانتظامٍ روبوتيٍّ مرعب.

ككثيرين غيرها اعتادت ياسـمين اتخاذ المشي ملاذاً تحصل فيه على خلوتها الخاصة، كانت تمشـي ساعاتٍ عدّة تخلو فيها لنفسها تحاور ذاتها، تـدرس أركان روحها، تتفقد جوانب أفكارها أو حتى تسـافر في رحلٍ اضطرارية أو اختياريةٍ نحـو الماضي، وربما أحياناً تسرح في رقصةٍ سـافرةٍ بين سحب جنون الخيال لتمنح نفسها شيئاً من حقها في جرعات السعادة التي قد تحرمها اياها الحياة؛ خلاصة القول أن المشي كان رفيق مشاويرها كل يوم... ليس اليوم!

اليوم كان الأمر مختلفاً تماماً، كانت تعي جيداً أنها تودّ الهرب من ذاتها، من أفكارها ومواجعها بأي ثمن.

أشـارت بيدها لعربة أجرة، اسـتقلتها، دلّت السائق على العنوان ووضعت سـماعات هاتفهـا في أذنيها مغرقةً نفسـها في موسـيقى صاخبة ملأت جمجمتها ضجيجاً كثيفاً يستحيل أن تتخلله الأفكار، وصـوت السـائق أيضاً، أدركت ذلـك بعد محاولاتٍ مستميتةٍ من السـائق وصلت لهـا بأعجوبـة لتبلغها بأنهـا قد تجـاوزت العنوان المطلوب، «لا لن أمشـي» كان قرارها؛ خلعت سماعاتها وأرشدت السـائق ليلتف ثانيـةً ويوصلها للعنوان المطلـوب مضطرةً لتجاهل الابتسامة الجشعة على وجهه وهو يطالبها بضعف الأجرة المعتادة.

دخلت عيادتها، تجاوزت غرفة الاستقبال بسرعة لتستقر على كرسيها في غرفة الجلسات وتشغل نفسها بتقليب أوراقها بلا هدفٍ أو هدى، منظر أصابعها المرتعشة وهي تقلب الأوراق كان القشة التي فجرت بركان مشاعرها، أدركت بأنها كانت أضعف من أن تتصدى لطوفان القلق بداخلها، رمت أوراقها جانباً، دفنت وجهها بين أصابعها وأجهشت في البكاء.

دموعنا، لعلها تكون ونيس آلامنا، أو ربما تكون ضريبةً ندفعها للكون، قِطَعٌ من روحنا نرميها في آتون الفناء، تبذلها أجفاننا قرباناً للعالم القاسي مقابل شيءٍ من السلوان والهدوء.

نعم البكاء جيد.

بـدأت تسـترد ثقتها رويـداً رويداً، انقشـعت عـن روحها غيوم التوتر، رفعت رأسـها، «أنا طبيبةٌ نفسـية» أقرّت بصوت مرتفع وهي تمسـح آخر دمعاتها وتنهض متجهةً للمطبخ لتغسـل وجهها وتعيد ترتيب زينتها، جهزت الصينية المعتادة من الشـاي والبتيفور، شيءٌ

ما في لمعان الصينية وهي تضعها على طاولة غرفة الجلسات ذكرها بشيءٍ مهم!

التقطت أوراقها، وراحت تقلب فيها بحماس، التمعت عيناها وهي تخطّ بعض الملاحظات السريعة؛ ابتسمت بثقة، ها قد عادت ياسمين الطبيبة النفسية القادرة على مجابهة \ألم الفراق\.

جالسـةً كانـت بانتظـار مريضاتها الأربـع، لم تدفن رأسـها بين أوراقهـا عند حضورهن بل كانـت تتأمل كلاً منهن، تسـبر أغوارها وتدرسـها بعمـق، ربما.. تكـون أصابعها.. قد تقلصـت قليلاً على أوراقهـا مع دخول جـوري، إلا أنها تمالكت نفسـها بسـرعةٍ وهي تتأمل الفتاة الفاتنة تتمختر ببنطالٍ ذهبيٍّ ضيق وقميصٍ أسودٍ ملتصقٍ بنهديها بإثارة، فيما يتراقص عقدٌ لؤلؤيٌّ حيث تحلم الفراشـات بأن تمـوت احتراقاً؛ شـعرها كان معقوصاً على هيئة ذيـل الحصان مما أعطاها منظراً نضراً نشـطاً رشـيقاً، كعادتها كانـت جوري لوحةً من الأنوثـة تنسـاب ملفوفـةً بغلالةٍ من روائـح الزهر العطرية، راسـمةً بحضورهـا حـدود خرائـط الأحلام؛ لكن شـيئاً ما إلـى جانب كل ذلك.. كان هناك شـيءٌ ما في نظراتهـا وضحكتها الواثقة كلامٌ كثيرٌ كان يشـع من وجودها، كلامٌ لم تكن ياسمين مسـتعدة للاقتناع به؛ على كلٍّ ليس هذا وقت الأوهام، حان وقت بدء الجلسـة، سـحبت نفسـاً عميقاً تسـتقي به من داخلها ذلك الهدوء الذي طالما أجادت الغـرق الإرادي فيه، ومن جوفها خرج الصوت الواثق القوي لتنطق كلمةً راقبت أثرها على وجه كلٍّ منهن بدقة: «الإدمان».

ـ الإدمان، كلمةٌ كثيراً ما تطرق أسماعنا، ترعرعنا على أن نربط الكلمة بأفكارٍ عن المعاناة الجسدية والدمار، تعودنا على أن نسمع الكلمة إلى جانب كلمة المخدرات ليصبح الادمان مترادفاً لفكرة

الموت المؤجل، لكن مع الوقت اتسعت حدود الكلمة واستطالت لتشمل كافة مجالات الحياة، إدمان أفكارٍ وآراء، إدمان أشخاصٍ وعادات، إدمان احتياجاتٍ وعقاقير ومسليّات، أنواعٌ لا تعدّ ولا تحصى للإدمان، لكننا لو نظرنا خلف كل حالةٍ من الحالات على حدة لوجدنا أنها كلها في الاساس ما هي إلا جسرٌ عاطفيٌّ وهمي نحسبه يرفعنا ليعلو بنا فوق بحور متاعبنا ومشاكلنا النفسية، لنستيقظ على رمالٍ متحركةٍ تبتلعنا أحياء لتغرقنا في جوفٍ جعبةٍ من الإخفاقات، انعدام الثقة والإحساس بالانتهاك؛ وكما لكلٍّ منا نقطة ضعف فإن لكل منا إدمانٌ ما قد يكون إدماناً ظاهراً أو إدماناً باطناً نحترف إخفاءه بمهارة، لكنه في النهاية يتحكم بنا وبمصائرنا بشكلٍ أو بآخر، جارّاً علينا من التعاسة أضعاف ما يحمل لنا من متع، اليوم يا عزيزاتي ستكلمنني عن إدمان كلٍّ منكن.

سوسن.. في الجلسة السابقة كنتِ ضحية نوبة إدمانٍ جنونية، لذا أطالبك بأن تبدأي الحديث اليوم؛ إدمانك هو..

بصوت يائسٍ أكملت عنها سوسن

ـ الطعـام نعم الطعام... إدماني..... هـو الطعام، مهما حاربته، مهمـا لعنته حتى لو.... حتى لو صببت عليـه جميع لعنات الأرض والسـماء حتى لو... حتى لو آمنت بمسـمياتكم واتبعت وصفاتكم ونصائحكـم، مهمـا لعنت مرآتي وأقسـمت بـأن أقاطعـه... أعود لـه راكعة.. فكيـف بالله يا دكتـورة.. كيف.. كيف أقاطع شـريكي الوحيد؟ كيف.. كيف.. كيف أقاوم جوعي؟ كيف! لا.. لست أتكلم عن ذاك الجوع الجسدي، لست أتكلم عن.. عن ذاك الألم الدنيوي الزائل، إنمـا.. إنما هو ذاك الجـوع... الجوع النفسـي! أتدركين.. أتدركيـن يـا دكتـورة.. معنى الجـوع النفسـي؟ أتدركيـن عندما..

تحرقنـي نظراتهم... أفكارهـم... توقعاتهم.. أهـرب.. أهرب من كل شيء وأغوص في شـهوة المضغ، أعضّ على أوجاعي، أهرس قلقي بين طبقتي أسناني و... وابتلع احساساً مؤقتاً بالسعادة والمتعة يملأ جزءاً من الفراغ... الفراغ الساكن في جوفي... ولقمةً بعد لقمة أحـس.. أحس بأنـي لم أعد لوحـدي، فصديقي الطعـام موجود.. موجـودٌ بداخلي يلعق جراحي ويغلفها بطبقاتٍ من النعاس اللذيذ، ليس هذا فحسب بل.. بل هو صديق عمري يشاركني متعي جميعاً، لسـت لوحدي.. لست لوحدي بل يشـارك الجميع وإلا.. وإلا فلم تُدفـع الألوف وعشـرات الألوف... عشـرات الألـوف على موائد الأفـراح؟ الناس يا دكتورة لا يفرحون إلا والطعام ونيسـهم فهو... هو صديقهم منذ الأزل هو صديقهم منذ الخطيئة الأولى... الخطيئة الأولى التي أخرجت آدماً من جنات عدنٍ كانت... ببساطةٍ كانت.. شـهوة الطعام عندما تناول تلك الفاكهة المحرمة، ليس آدم فحسب أجل ليس هو فحسـب! قلّبي في كتب التاريـخ... تجدين.... قصة موت عمر بن عبد العزيز مغروسـةً في شـهوةٍ لطبق لحم، ابحثي... ابحثي في الأساطير، أسـطورة الأساطير حرب طروادة بدأت بنزاع آلهـة الأولمب نزاعهم... على تفاحـة! خطيئة حب الطعام في حياة كلٍّ منـا.. ماذا نفعل يا دكتورة.. ماذا نفعـل عندما نبغي تغيير روتين الحياة والاسـتمتاع قليلاً؟ نخرج.. نخرج لتنـاول الطعام في مكانٍ جديـد؟ أو.. أو لتنـاول وجبـة الطعام لـدى أحد الأقربـاء! حتى.. حتـى لو وددتِ الاسـتمتاع بمغامرة... معامرةٍ مضمونـة النتائج... تجرّبيـن طبقاً جديـداً من البهـارات الهنديـة أو.. أو تقومين بزيارةٍ لمطعم آسـيويٍّ وتحدثين رفاقك عن.. عن كيف تناولتِ ذاك الطبق المجهول المكونات؛ يرافقك الطعام رفيقاً... رفيقاً.. رفيقاً وصديقاً

مخلصاً في كل مناسباتك.. هل.... هل سمعتِ عن المتذوقين الباصقين؟ يستخلصون متعة اللقمة الشهية، ويبصقونها! أجل يبصقونها! مستغلون نفعيون متعجرفون هم!

وماذا.. ماذا عن حفلات طعام الرومان؟ يتناولون موائد الطعام... يتناولونها مستمتعين بطعمه و... وبصحبته ثم يقيؤونه ليتناولوا غيره وغيره وغيره، ألا ترين أمثالهم في الحياة؟ هم.. هم مخادعون هم منافقون كاذبون، كثيرون نصحوني أن.. أن أحذو حذوهم، كثيراتٍ من رشيقات القوام يحذون حذوهم! لالا لا.. لست مثلهم أنا! لست مثلهم! الطعام صديقي الوحيد و.. أنا فعلاً.. فعلاً أحبه! أجل أحبه.

... سمّيها لعنةً لو... شئتِ أو... أو سميها إدماناً... لكنها ليست لعنتي وحدي لا ليست لعنتي وحدي هي لعنة الجميع هي.. هي إدماننا جميعاً.... كل ما... في الأمر أن خلايا جسمي... تتفاعل مع... مع هذا الإدمان بالطريقة التي... تكرهون.

ـ بائسة!

غنّةٌ في حرف السين منحت جلنار هسيساً يشبه فحيح الأفاعي، فيما كانت تمارس عادتها في رمي السهام الذهبية المسمومة؛ حرّكت نظارتها من على عينيها لتُرجع بها بضعة خصلٍ من شعرها ليستقروا جميعاً على قمة رأسها.

ـ حان دوغِي أليس كذلك؟

لوحٌ زجاجيٌّ ما كان له أن يكون ببرودة وقساوة ملامحها وهي تبتسم ابتسامتها الثلجية لياسمين بعد أن منحتها الأخيرة هزّةً موافقةً من رأسها، بدأت الحروف الأرستقراطية تنساب من بين شفتيها مطليّة بصقيعٍ لا يوصف.

ـ لوي فيتون، كغيستيان ديوغ، ايف سان لوغان، بييغ كاغدان، نينا غيتشي، باكو غابان... أسماءٌ أبحث عنها، أتابعها وأقتنص أوائل منتوجاتها مهما غلى الثمن، قد.. يبدو ذلك للحظة إدماناً.... لا... ليس كذلك! هي وسائل لا أكثغ أسلحةٌ أحتاجها لأصطاد فغيستي..

الذهب والمجوهغات، الثياب والفغاء، السَيّاغة الحديثة والفيللا الواسعة، التحف واللوحات، الخدم بِتقاطيع مختلفة ولكنهِ آسيوية؛ كلها فخاخٌ أنصبها بإتقان، أصيد بها ما أتوق له حقاً: ضعفهم، احتياجهم، ذاك الجوع لما أملك! ذاك الإحساس، بأن لديّ ما ليس لديهم، هم أقل، أضعف، أصغغ؛ يتمنون لو يعيشون ساعةً من حياتي.. لو.. يمتلكون معطفاً مما أغمي!

أُسغةٌ كاملةٌ تقتات شهوغاً من ثمن معطفٍ أملّه بِسُغعة؛ شابٌّ يتطلع في أقصى أمانيه لثمن سياغةٍ استبدلتها منذ أعوام، لينشئ له عائلة ويسعد حبيبة؛ غجلٌ عائلٌ يتوق لمبلغ ينفي به عبوديته ينشئ به عملاً خاصّاً، مبلغٌ يماثل ثمن قلادةٍ مدفونةٍ في إحدى علب مجوهغاتي، أضعها على جيدي فأغى الانكساغ والضعف في العيون.

أنا الثمينة، أنا جلناغ، سيدة المجتمع الأولى، أنا سيدتهم!

بهذه النقوش على حقيبتي، والجلد الثمين على حذائي، بهذا المعطف المُستوغد وهذه النظّاغة الموسومة بتوقيع باهظ الثمن، بهم، أدخل أي مكانٍ لأغى الغِقّاب تنحني والأصوات تتبدل والوجوه تكتسي بالإذعان، يعلنون تنصيبي ملكة، الأولى والأغلى والأثمن.

ذاااك.. ذاك يا ياسمين.. هو إدماني، ضعفهم وانكساغهم، هو وقود قوتي؛ ذاك هو إدماني.

أحسّت ياسمين برعشةٍ تسري في بدنها مع نهاية كلمات جلنار،

لم يكن كلام جلنار سبب تلك الرعشة، بل تلك النظرة الناريّة التي كانت جوري ترميها بها طوال حديثها، لتتأجج بكرهٍ طاغٍ وهي تنطق بآخر كلماتها؛ شيءٌ ما.. شيءٌ ما في تلك النظرة.. كان خطيراً.

ـ رحلةٌ صعبة.

ذاك الصوت القوي الواثق، النادر جداً، نسرين كانت تمنح جلنار نظرةً مغايرةً تماماً لنظرة جوري، كانت نظرة تعاطفٍ وتفهم، نظرة.. أم لابنتها!

«حانَ الوقت لتخرج نسرين من قوقعتها.. حان الوقت» حدّثت ياسمين نفسها وهي تتشبث بدفر ملاحظاتها، فيما كانت الإثارة تغزو أعصابها.

ـ وأنت يا نسرين، ما هو إدمانكِ؟

حضنت نسرين أقلامها وكراسها إلى صدرها وابتسمت

ـ لا، لن أقبل بردٍّ صامتٍ هذه المرة؛ قلتِ بأنها رحلةٌ صعبة، أما آن الأوان لتروي لنا شيئاً عن رحلتك؟

ـ أنا لست صامتة! أنتم لا تجيدون القراءة، رحلتي كاملةً تجدونها هنا.

توقفت نسرين عن الكلام وأخذت تقلب صفحات كراسها بحبٍّ وشغف.

ـ لا يا نسرين، ليس إدمانك هذا الكراس، بل الصمت! لقد أدمنتِ الصمت والاختباء، أدمنتِ الهرب من كل شيء، أدمنتِ دفن نفسكِ بعيداً حيث لا يلمحك أو يلمسك أحد، تراقبين الجميع وتبعدين الجميع، لتعيشي عُشر حياة، مكتفيةً بفتات الدنيا خوفاً منها ورعباً؛ ما الذي يخيفك لهذه الدرجة؟!

هربت نسرين بنظراتها بعيداً فيما أخذ التوتر يكتسح الحصون الباردة للطبيبة النفسية.

ـ لماذا أنتِ صامتة! تكلمي!

هو ذاك التوتر الذي يملؤك عندما تدرك بأنك أفرغت كل ما في جعبتك من سهام في الهواء، فيما يفلت ذاك الصيد الثمين من بين يديك؛ نسرين كانت قد أفلتت بالفعل وما زاد الطين بلةً إلا سحابة الدخان التي نفثها جوري لتثير نوبة سعالٍ في صدر نسرين؛ أدارت ياسمين رأسها مصوّبةً نظراتها النارية نحو جوري.

ـ أما أنتِ فأمركِ سهل! أدمنت تلك السجائر وتراقصها الدافئ على مبسمك، تطلقين سحب الدخان ضاربةً قوانين العيادة بعرض الحائط، كما كل القوانين الأخرى أليس كذلك؟!.. أطفئيها! أطفئيها يا جوري! إدمانك سيقتلك وإن لم يقتلك فسيقتل آخرين!

ـ مثيرٌ للاهتمام اختيارك لهذه المفردة بالذات «القتل».... «إدماني سيقتل الآخرين»...

أعادت السيجارة لفمها، سحبت منها نفساً طويلاً مستلِذّاً، نفثته ببطءٍ مستفزٍّ كأنما لتحاول إثارة أعصاب ياسمين أكثر فأكثر، ثم أخذت تتلاعب بالسيجارة بين أصابعها.

ـ السجائر..

ضحكةٌ ساخرةٌ أفلتت من بين شفتيها، وهي ترسل يدها لتؤطّر أطراف جسدها الذي لم تتمكن الثياب من إخفائه فما زادته إلا فتنةً وإغراءً؛ تحركت أصابعها مستعرضةً الكتفين البضتين، النهدين الفائرين، الخصر اللين، لتنتهي عند الجذع الممتلئ بمكامن السحر؛ أناملها كانت تتحرك بثقةٍ وغرور كملكةٍ ترسم بأطراف أصابعها

حدود مملكتها الآسرة، فيما كانت كلماتها تتراقص بمجونٍ بين شفتيها المكتنزتين:

ـ ما السجائر إلا مكملٌ لهذا..

السيجارة بين أصابعها كانت ترتجف لمعاناً يتوق للمسةٍ تحرق بها هذا الجسد الفاتن، او تحترق به؛ أعادتها جوري لشفتيها مانحةً إياها قبلةً أخيرة لتتوهج محترقةً حتى النهاية، ثم دفنتها مع أخواتها في مطفأة السجائر أمامها وهي تنفث آخر أنفاسها، ثم استطردت

ـ يحبون السموم على أطراف أصابعنا، ويفتنهم تراقص صولجان المتعة بين شفاهنا، لا يعرفون.... أن أبهى الزهور وأكثرها تألقاً تختار ألوانها بخبرةٍ ومهارة لتوقعهم في شراكها... في فخّ الموت؛ تسألين عن إدماني يا ياسمين؟ ليس إدماني السجائر. إدماني هو تلك النظرة المتفاجئة على وجوههم...

قهقهاتٌ مندفعةٌ من قلبها مباشرةً كانت تروي استمتاعها بكل حرفٍ تنطقه، قهقاتٌ ظلّ رنينها يحوم في الغرفة منتظراً تصريحاً لم يكن أحدٌ يتوقعه.

ـ نظراتهم المتفاجئة، المصدومة، نظراتٌ تلتحف بالرعب، وأنا أقتلهم؛ دماؤهم تسيل لتحترق في بركان غروري، لتؤجج نيران حقدي وكراهيتي لهم.. كلهم.

حركت رأسها لتتراقص الخصلات الحمراء حول وجهها الفاتن بغنجٍ مجنون، التصقت بعض الخصلات الحمراء بأحمر شفاهها اللامع، سحبتها بسرعة والكلمات تنفجر من بين شفتيها:

ـ انظروا.. انظروا إلى شعري ترونه؟ أحمرٌ بلون الدماء.... بلون دمائهم، أتأمله في مرآتي كل يوم فتغمرني شهوةٌ تفوق أي شهوةٍ أخرى، خائنون هم، مخادعون! كلهم يستحقون، وما أنا إلا الحُكم

العادل الصادر بحقهم، يتركون خلفهم زهورهم الرقيقة، أقحواناً، ليلكاً، و... ياسميناً...

نظراتها حاصرت ياسمين في تلك اللحظة، لتتسع ابتسامتها وهي ترى ياسمين تشيح بناظريها، فتابعت متلكّئةً عند كل حرف:

ـ ياسميناً ساذجاً! بكل نذالةٍ ووقاحة، يهجرون أزهرهم العطرة ويلهثون خلف تألّق الوردة الجورية، فتطعنهم أشواكها حتى الموت، هذا هو إدماني! إدماني هو قتلهم! أنا.. أدمنت قتل عشاقي.

صمتٌ تامٌ كصمت بدء الخليقة، صمتٌ لم يلوثه إلا صوت أقلام نسرين التي كانت تنشبها في الورقة بجنون طابعةً على أوراقها الانفعالات على وجوه الجميع: الابتسامة الشيطانية الفاتنة على وجه جوري، القلق الواصل حدّ الرعب على وجه ياسمين، الهلع المستتر خلف نظارةٍ ثمينة لم تتمكن من اخفاء ارتعاش الشفتين الأرستقراطيتين لجنار، والدهشة البريئة على وجه سوسن، سوسن التي قطعت الصمت متسائلةً بصوتٍ مرتجف:

ـ تقتلينهم.. تقتلينهم.. حبّاً.. تقتلينهم حبّاً أليس هذا ما تعنين؟

ضحكاتٌ لاهثةٌ انطلقت من الحنجرة المجنونة:

ـ لا يا طفلتي العزيزة، لا! قطعاً لا، أقتلهم، أطعن القلوب الغادرة، أحررها من نبضها الزائف؛ أقتلهم... أقتلهم بالسكاكين.. في الواقع....

لفّت رجلاً على رجل، وهي تركّز نظراتها ملتهمةً أعصاب ياسمين

ـ في الواقع آخر سكاكيني زرعته في حوض الشجرة المواجهة لمنزل زوجةٍ مسكينة، لا تدري أن زوجها الذي تفتقد، كان آخر عشاقي، وأن دماءه تناديها بكل صفاقةٍ من بين حبات التراب... لا بد من أنها تفتقده كثيراً، ياسمينةٌ مسكينة!

حركةٌ حانت من جلنار وهي تنكمش في كرسيها، كانت كفيلةً بشد انتباه جوري لتحول نظراتها عن ضحيتها المرتعشة

ـ جلنـار عزيزتـي لماذا أنتِ خائفـة؟ لا تقلقي، فأنـا لا أقتل إلا الرجال!

بسمةٌ متوحشةٌ ارتسمت على وجهها وهي تكمل

ـ ولـو أننـي لأجلك أنت فقـط قد أقوم باسـتثناءٍ صغيـر، فأنت يـا عزيزتي لا تقلّيـن عنهم خداعـاً وخيانة، وأنت لسـت أقل منهم اسـتحقاقاً للموت، ربما.... تكونين أشـدّ منهم استغلالاً وجشعاً؛ من يدري!

ـ لا أعرف عمّ تتحدثين!

صوت جلنار المرتعش لم يكن ما دفع جوري في نوبةٍ هستيريةٍ من الضحك بل...

ـ «جلنـاغ» عزيزتـي... أين ذهبت لثغتك؟ «أغسـتغاطيةٌ» مثلك تلفظ حرف الراء مثلنا نحن الغوغاء!!!

وغابـت جـوري أكثر وأكثـر في نوبـة ضحكها الهسـتيري فيما التقطت جلنار حقيبتها وخرجـت هاربةً من العيادة، بكرامةٍ مدمَّرة، وخطواتٍ متعثرة.

## (٢)

الضـوء الصناعي الأصفر كان يغمر الغرفـة ببلادةٍ عندما فتحت عينيها، خارج النافدة كانت أولى خيوط الفجر تغزو السـماء لتشتت ظلاماً دامساً لليلةٍ غاب عنها القمر.

ضحكات جوري المجنونة أخذت تقرع أبواب وعيها، سبحت عيناها في فضاء الغرفة محاولةً أن تتذكر شيئاً من يومها، كيف انتهت الجلسة؟ كيف جاءت هنا؟ متى نامت؟.

اصطدمـت نظراتهـا بالسـقف الأبيـض، أفكارها كانــت بيضاء فارغةً مثله تماماً؛ نظرت للسـرير الفـارغ بجوارها.. لا لم يعد بعد؛ هل يعقل! هل من الممكن أن يكون مروان! لا طبعاً مستحيل!

أسـكتت ذاك الشـيطان الصغير الموسـوس لأفكارها ونهضت هاربـةً لتجلـس إلى مرآتهـا تمشـط المتمرد من خصلات شـعرها بهدوء، مراقبةً انعكاس صورتها في المرآة.

قميصها الأبيض كان مجعداً، فيما انتشرت على تنورتها البرتقالية طياتٌ مهملةٌ هنا وهناك.. كيف؟ ولماذا نامت قبل أن تغير ثيابها؟!

حاولت أن تقدح زناد ذاكرتها، صداعٌ خفيفٌ بدأ يضرب رأسها، حاولت أن تركز أكثر في محاولةٍ لتذكر أي شيء، لكن الصداع بدأ يشتد أكثر فأكثر، وضعت الفرشاة من يدها، رمت محاولاتها جانباً ونهضت نحو المطبخ طالبةً قرصاً مُسكناً وكوباً من الماء.

نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط في محاولةٍ لإحصاء الوقت.

«أنا لست ماهرةً في الحساب» ذكرت نفسها؛ تجاهلت الأمر برمته، رمت القرص المسكّن في جوفها وتبعته بكأسٍ من الماء.

«فنجان قهوةٍ سيكون كفيلاً بمحو أي أثرٍ للصداع»

بدت الفكرة جيدةً حينها، لكنها عندما جلست في كرسيها المعتاد لم تشعر بأي رغبةٍ بمنادمة فنجان القهوة، بدأ التوتر يغزو أعصابها وبراكين الغضب تتأجج بداخلها فيما أصرّت فكرةٌ عنيدة على احتلال كل مساحات وعيها متلاحمةً مع نظراتٍ مجنونة وضحكة مجلجلة تؤرق أفكارها... مروان أين أنت!

بخطواتٍ يائسةٍ مكسوةٍ بالارتعاش نهضت نحو الهاتف، للمرة المليون تراقصت أصابعها على لوحة الأرقام راسمةً الرقم الأهم في حياتها... \الرقم الذي تطلبه غير متاح\ رمت السماعة من يدها محاولةً المستحيل لتحارب كل مخاوفها، لا بد أنه نسي شحن هاتفه هذا كل ما في الأمر، لا بد أنه في... رحلة عمل مفاجئة، لا بد!

فأجابها الشيطان الموسوس مستمتعاً بالتلاعب بأعصابها المنهارة:

ـ ولماذا لم يتصل ليخبرك؟

ـ ربما اتصل وأنا خارج البيت؟

ـ وجوالك؟

ـ ربما كنت خارج التغطية.
ـ ولم يرسل رسالة؟
ركضت نحو هاتفها المحمول، راجعت سجل الرسائل مجدداً.. لا جديد رمت الهاتف من يدها وأجهشت بالبكاء.
«لا مناص! علي أن أقوم بذلك» اتجهت نحو غرفتها، كان حجابها مرمياً على الطاولة بإهمال، لفته حول رأسها بسرعة، حملت حقيبتها وخرجت.. لتبلغ الشرطة عن... زوجٍ مفقود.

# (٣)

سـماعتان معلقتـان بأذنين بارزتيـن، عينان مغمضتـان في تأمل تضربان بعرض الحائط أي سـيمتريةٍ منطقيةٍ للوجه البشري، فتطفو إحداهمـا لتعلو عن الأخرى عدة سـنتيمترات لتعطي شـكلا أشـبه بالجوكر، أو على الاقل بإحدى لوحات بيكاسو التكعيبية الشهيرة.

لا يمكـن لأحـد أن يدخـل المكتـب إلا ويطالعـه ذاك البريـق النحاسي المسـتفز، المنقوش بخطٍّ غريب على لوحةٍ نحاسية تعلن عن اسم الشخص الجالس خلفها «النقيب: ضياء عنتر»

لم تعرف ياسـمين هل كان ذاك الإحسـاس العارم بالنفور الذي يغلفها ناجماً عن شخص السـيد «ضياء» أم عن توترها وانزعاجها، فككل الناس العادِيين كانت تلك أول مرةٍ تدخل فيها قسم شرطة.

طال وقوفها عند الباب وهي غارقةٌ في ذاك الإحساس المزعج، منتظرةً أية إشارةٍ أو كلمة تساعدها على الدخول في الموضوع؛ لكنه كان غارقاً تماماً في سماعات جواله وما تبثه في أذنيه فيما تجاهل وجودها كلياً، كانت تشعر بالسخافة.

شعرت بالقلق بدايةً عندما أدخلها المجند إلى المكتب مغلقاً الباب خلفه بسرعة من يخشى تسرب قطراتٍ من طوفان حمم بركانية تمتلئ بها الغرفة، لكن الغرفة لم تكن بركاناً بل على العكس، الغرفة كانت هادئةً أكثر من اللازم.

أصدرت من حنجرتها عدة أصواتٍ خفيفة في محاولةٍ للفت انتباهه سدىً، فقررت أن تجلس على الكرسي المقابل للمكتب، ربما كان ذلك كفيلاً بجذب انتباهه، لكن ما حصل فعلياً كان ليجذب انتباه دبٍ في بياته الشتوي، فلسبب ما في خطواتها نحو المكتب تعثرت وانزلقت ساقطةً على الأرض؛ نهضت لوحدها لتجده لا زال وراء مكتبه لم يحرك عضلةً واحدة، بل ظلّ يحدق بها بطريقة مستفزة وهي ترتب ثيابها، ابتلعت انزعاجها وأكملت خطواتها نحو الكرسي لتجلس عليه بهدوء.

بادر ضياء أخيراً بنزع السماعات عن أذنيه.

ـ رائعةٌ هي فيروز، لا شيء يضاهي روعة صوتها في وقت كهذا إلا صوتها صباحاً أمام نافذةٍ مفتوحة مع كوبٍ دافئٍ من الكابتشينو.

لم يكن صوته الأقرع الأشد شبهاً بصورته الخالية من أي تناسق، بل عدم تناسق فكرة الحوار مع الوقت.. في موقفٍ آخر كانت لتتسلى بتحليل شخصيته الغريبة... لكنها!....

ـ زوجي...

ـ ضربك وتريدين تحرير محضر؟ لكنني لا أرى أي كدمات، هل ذهبت للمشفى؟ هل لديك أوراق ثبوتية؟

ـ لا لا.... لا كدمات... لا....

ازدردت لعابها ونطقت بتلك الكلمة التي كانت تؤرقها طوال أيام.

ـ مفقود.

ـ أجل، أجل؛ ذلك كان ليكون تخميني الثاني.

أمسك كوباً كبيراً رُسم عليه ما يبدو كأنه تمثيل لنظرية التطور، أخذ رشفةً طويلةً مسموعةً اقشعر لها بدنها فيما رجع بظهره ليملأ كرسيه سائلاً:

ـ تحبين فيروز؟

ـ فيروز؟

ـ فيروز ألا تعرفينها؟

ـ المغنية؟

ـ العبقرية! سفيرتنا إلى النجوم هي بعينها، تحبينها أليس كذلك؟

بنظرةٍ تائهةٍ وعدم فهمٍ حقيقي ردت عليه

ـ أنا لا...

قاطعها وهو يكتب شيئاً على أوراقٍ أمامه

ـ ما اسمه؟

ـ من؟

ـ زوجك طبعاً!

ردت متلعثمة:

ـ مروان السيد عيسى

ـ كم يوماً مر على اختفائه؟

ـ ثلاثة أيام تقريباً

متى كانت آخر مرةٍ رأيتيه فيها؟

ـ صباح يوم الخميس قبل أن أذهب إلى عيادتي

ترك أوراقه وحملق فيها بفضول

ـ ماذا تعملين؟

ـ طبيبةٌ نفسية

ـ طبيبةٌ نفسيةٌ ولا تحبين فيروز!
هتف مستنكراً عاقداً ما بين حاجبيه ليبدو أشد غرابة وإزعاجاً
ـ لم أقل إنني.. أحب فيروز.. أحب صوتها طبعاً لكن!...
ـ ما هي أغنيتك المفضلة؟ انتظري سأقول لك: ضاااع شااااادييي...
أخذ يغني بصوتٍ نشز، ثم ملأ الغرفة بقهقهةٍ أشبه بقرقة المياه المتسللة من جرةٍ مثقوبة.
عاد لأوراقه وعاد لتلك النبرة الآلية لأي موظف حكومي:
ـ معك صورةٌ عن عقد الزواج؟
ـ عقد الزواج؟
ـ نعم عقد الزواج، اليس لديك صورة عنه؟ محمود يمكنه أن يصوره لك... يا محمود.. محموووود
دخل المجند الذي سبق له أن أدخلها للغرفة مسرعاً كمن يهرب من مواء قطةٍ مسلوخة.
ـ لا.. ليس لدي العقد، لست أدري أين هو...
نظر لها ببرود، ثم حول نظره نحو المجند الواقف أمامه.
ـ ما الذي تريده؟
ـ لقد ناديتني يا سيدي.
ـ ولم أعد أريدك الآن، اخرج بسرعة!
خرج محمود مسرعاً مغلقاً الباب خلفه:
ـ زوجةٌ جديدة؟
ـ تزوجنا منذ.. شهرين
التواءٌ ساخر ظهر على طرف شفته الممطوطة.
ـ تخاصمتما قبل «فقدانه»؟

ـ تخاصمنا؟.. قصدك؟!... لا لا لا هو لم يخرج غاضباً هو لم يرحل.. فقط اختفى!

ـ اتصلت به؟

ـ هاتفه مقفل.

ـ الفيس بوك، تويتر، سكايب، انستغرام؟

رد على نظرتها المستغربة بهزةٍ من كتفيه وتابع بصوته الآلي:

ـ اتصلت بعمله؟

ـ ليس... لدي الرقم، كنت دوماً أكلمه على جواله.

ـ اتصلت بأهله، بأصدقائه؟

ـ أهله متوفون، لا أعرف أحداً من أصدقائه.

ـ بالله عليكِ! زوجته منذ شهرين ولا تعرفين أصدقاءه!

هنا لم تعد اعصابها تستحمل، انفرط عقد دموعها وأجهشت في البكاء.

احتاجت لدقيقةٍ أو أقل لتتمكن من السيطرة على أعصابها، أخرجت منديلاً من حقيبتها وأخذت تمسح دموعها، كان لازال يتفحصها بنظراته الغريبة؛ ربما يكون ذكياً على عكس ما يبدو، ربما تكون الخبرة، أو لعلها تلك الغريزة التي تنمو لدى كل العاملين في سلك الشرطة.

ـ أنا أثق بأي شخصٍ يقدّر الفن الجميل، وأنتِ من عشاق فيروز لكن.. لكنك تخفين شيئاً ما!

ـ نظراتها انحدرت نحو حذائها، وصمتت، فيما كانت قهقهات جوري تفتح أبواب كل أفكارها.

ـ بما أعطيتِني حتى الآن لن أستطيع أن أساعدكِ كثيراً؛ ماذا لديك بعد، أخبريني؟

بعد شيءٍ من التردد حزمت أمرها.
ـ هناك... مريضة..
ـ مريضةٌ نفسية؟
هزت رأسها بضعف
ـ قالت بأنها تقتل الرجال الذين... يعشقونها.. الرجال.. الذين يخونون زوجاتهم.
ـ وهي تخونك معه؟
ـ لست أدري.
ـ على الأقل تشكين في ذلك؟
صمتها كان ذاك الصمت البليغ الذي يخبرك بأن السكوت علامة الرضى، أو على الأقلِ «الموافقة»
أخذ رشفةً مزعجةً أخرى من كوبه.
ـ وما يدريك أنها صادقة؟ هي مريضة.نفسية!
ـ لقد.. تكلمت عن سكين.. قالت إنه... لقد حددت مكانه..
ـ سلاح الجريمة!
أخذت الدنيا تدور بياسمين، احست بعضلاتها ترتعش وبكل جزء فيِ جسمها يغلي في سعارٍ محموم، تشبثت بيد كرسيها بقوة محاولةً أن تحافظ على وعيها.
ـ قالت إنها دفنت، دم آخر ضحاياها.. في شجرةٍ أمام منزله... هناك... شجرةٌ أمام منزلنا.
ـ محموووووود تعال بسرعة!
دخل محمود مسرعاً كعادته
ـ جهز العربة سنذهب إلى العنوان.... (التفت نحو ياسمين وبصوت مليءٍ بالحماس:) ما هو العنوان

من بين شفتين مرتعشتين دلت ياسمين محموداً وضياء على العنوان الذي كانوا سيتجهون جميعاً إليه، ليتبين لهم صدق جوري... من كذبها.

خطواتها المترددة كانت تلحق ضياء بسرعة، فعلى القوة أن تذهب في عربة الشرطة الرسمية فيما يوصلها ضياء بسيارته الخاصة، كان ضياء يدندن بلحنٍ شابه من النشاز ما منعها من تمييزه، فيما كان يتجه نحو تلك السيارة التي أخذت تتمنى من كل قلبها ألا تكون سيارته، لكن طبعاً... ذهبت أمنياتها أدراج الرياح وهو يضغط على زر مفتاحه الإلكتروني لتجيبه تلك العربة بصوتٍ هزليّ يعلن استجابتها لمالكها.

كانت سيارةً خضراء فاقعٌ لونها لا تسر الناظرين، وإن لم يكن لونها كافياً فالملصقات العديدة على جسم العربة وزجاجيها الأمامي والخلفي كفيلين بتتويجها ملكة على عرش القباحة، تلك الجريمة الفنية الشنعاء كانت تتناسب بشكلٍ تراجيدي مع مالكها فما أن جلس فيها حتى تشكل أمامها مشهدٌ مرسومٌ بدقة لمسلسلٍ كوميديٍّ ساخر، أغمضت عينيها واستقرت على المقعد المجاور للنقيب ضياء، أحست بأنها كانت الشيء الوحيد غير المتناسب مع هذا المشهد الكوميدي، أو ربما كان تواجدها الشاذ في هذا المشهد أشد سخريةً من تناسق ذاك الضابط الغريب مع سيارته الكريهة.

حرك ضياء محرك السيارة واقلعت السيارة متجهةً نحو منزلها، فيما حاولت متابعة محاولاتها اليائسة في الهرب من الأفكار المتضاربة في رأسها المُتعَبة؛ شاغلت نفسها بمتابعة محتويات السيارة.

قرآن صغير تدلى من المرآة الأمامية تستند إليه مسبحةٌ زرقاء نُقِش على حباتها أسماء الله الحسنى، اختيارٌ غريب لرجلٍ يشرب «الكابتشينو» في كأسٍ موسومةٍ بنظرية التطور الداروينية، لكن.. لا غريب مع ضياء عنتر! رائحةٌ نفاذةٌ كانت تفوح من معطرٍ معلق أيضاً

على نفس المرآة، مربى المشمش... ربما، أو الخوخ؛ دميةٌ بلهاء كانت تتراقص حول القرآن والمسبحة، فيما تشابكت خصلات شعرها الصوفية بمعطر الجو الكرتوني.

تركت المرآة وحليها، لتتأمل ذاك الكتاب المركون على التابلوه أمامها كان الكتاب مفتوحاً ومقلوباً ليواجهها غلاف الكتاب الأحمر منقوشٌ عليه العنوان بخطٍ واضحٍ جميل «قواعد العشق الأربعون» تساءلت لمَ لم يضع الكتاب في عَلبة القفازات، على الأقل ليحميه من عوامل الطبيعة؛ جاءها الرد في نبرة صوته المتكلفة وهو يمسك الكتاب في حركةٍ استعراضية مستفزة:

ـ لا يمكنني إخفاء عشقي للمطالعة والقراءة، فنحن المثقفون لا يسعنا أن نعيش بدون كتبنا حتى في عرباتنا.

رمى الكتاب على المقعد الخلفي في محاولةٍ منه للفت انتباهها لكم الكتب الأخرى المرمية هناك، لكن ما نجح به كان إثارة سحابةٍ من الغبار الذي كان متراكماً على الأسماء البراقة «باولو كويللو» «أحلام مستغانمي» «هوراكاي موراكامي» «ستيفن كينج» وحتى من كتاب «أليف شفاق» الذي كان قد رماه حالاً دالاً.. على صدق اهتمامه بالقراءة.

شعورٌ خانق اعتراها من هذا الرجل وشخصيته الغريبة، لحسن حظها لم يكن لذلك الشعور أن يستمر كثيراً، فبيتها لم يكن شديد البعد عن مركز الشرطة.

ما أن دخلت السيارة شارعها حتى تعلقت عيناها بعناصر الشرطة ينبشون أحواض الأشجار المترامية على أطراف الرصيف.

شـجرةٌ واحدةٌ نالـت كل اهتمامهـا، هي تلك الشـجرة ولا بد! كانـت الشـجرة تطلّ على شـرفتها أغصانها ممتدةً كأنمـا تمد يدها

لتبوح لها بسر ما؛ ترجلت من السيارة بسرعة، اقتربت من الشجرة بخطواتٍ آلية.. هل.. يعقل.. أن!..

صوت جوري الساخر أخذ يتردد في خيالها «لا تدري أن دماءه تناديها بكل صفاقةٍ من بين حبات التراب.. ياسمينةٌ مسكينة.. مسكينة... مسكينة» كان الصدى يتردد بعنفٍ في رأسها وهي تلمح الشرطي الجاثي عند الشجرة يرفع ذارعه مشيراً لرفاقه، ضاقت عيناها القلقتان وهي تحدق بذال النصلِ اللامع، التقطه بحرص، رماه في كيسٍ بلاستيكي لقد كان.. سكيناً!.. سكيناً.. دامياً!!

مادت الأرض بها، بالكاد تمالكت نفسها خطواتها كانت تسحبها للأمام بتهالكٍ قاتل..

ـ سيدي.. لقد وجدنا سلاح الجريمة.

كان ضياء يقفل سيارته، أعاد المفتاح لجيبه واتجه نحو الشرطي ليسبقها بخطواته الواسعة.

ـ إذاً فقد صدقت مريضتكِ يا دكتورة، يبدو أنه علينا أن... ما الذي تفعله أيها الغبي!

كان قد قطع كلامه الموجه نحوها لينهر الشرطي المسكين الذي انتفض بعنف حتى كاد السكين يقع من يده.

ـ أ... أ.. أضعه في.. المغلف سيدي... لأرسله.. لمكتب سيادتكم... سيدي.

وبكل غيظ الدنيا رد ضياء كازّاً على أسنانه بغضب:

ـ ألم تنسَ شيئاً!

ـ ع... ع.. عفوك... سيدي.. لقد.. نسيت.

مد الشرطي الكيس البلاستيكي نحو ضياء وهو يحني هامته حتى كاد رأسه يلامس الأرض.

رماه ضياء بسبةٍ قبيحة وهو يتناول منه الكيس باحتقار، ثم رسم على وجهه بسمةً مرحة وهو يتجه نحو ياسمين.

- هل تريدين أن تتصوري معي؟

- ما!... عفواً؟!!

هز كتفيه وهو ينظر للسكين في يده:

- لا شيء يهم، مجرد صورةٍ للذكرى..

ثم استكمل مجيباً التساؤل المدهوش المرسوم على وجه دكتورتنا المسكينة.

- مع كل جريمة آخذ «سيلفي» مع شيءٍ يخص الجريمة.. السلاح، المجرم، الجثة لو كنت محظوظاً كفاية؛ وأنشرها على الأنستغرام، لقد حصلت على عددٍ ضخمٍ من المتابعين على الموقع ومنهم شخصياتٌ شهيرة! لن تصدقيّ؛ هاه ما رأيكِ؟ تتصورين معي؟

هزّت رأسها نافيةً وقد ألجمت الصدمة لسانها وأخذت تراقبه بذهول وهو يبسط ذراعه الممسكة بجهازه المحمول فيما التمع ضوء الفلاش معلنا عن التقاطه لصورةٍ ذاتية «سيلفي» مع الكيس البلاستيكي المحتوي على سلاح الجريمة، ضغط ضغطاتٍ على جهازه فيما ناول الكيس للشرطي المسكين بعدم اهتمام ثم اتجه نحوها ليريها الصورة بعد أن نشرها على الموقع الشهير معلقاً:

«خبرٌ طازج تقدمة النقيب ضياء عنتر»

انشغل عنها بالرد على التعليقات المتلاحقة فيما تعلقت عينا ياسمين متابعتان السلاح في يد الشرطي، يودعه في مغلفٍ بنيّ سميك، ليخفي السكين بالدماء التي كانت تلطخه.. تلك الدماء.. هل من الممكن! هل حقاً.. هي دماء... مروان!

أجفلها صوت ضياء من خلفها وهو يقاطع أفكارها:

ـ ألن تدْعينا لشرب فنجانٍ من القهوة؟

ـ أنا؟.... سوف...

لم يلقِ ضياء بالاً لها أو للعثمتها، لم يكن يبدو عليه حتى أنه كان ينتظر جواباً منها، فقد أعطى بضعة تعليماتٍ لعناصره ثم أشار لها آمراً أن تتقدمه؛ وما هي إلا دقائق وكانت تفتح الباب ليدخل الضابط شقتها مطلقاً صفيراً من بين أسنانه.

ـ يا لها من شقةٍ أنيقة، تعزفين البيانو؟

وحين لم تحر جواباً، تابع بسرعة

ـ تسمحين لنا لو تجولنا قليلاً في الشقة فيما تحضرين لنا القهوة؟

هزّت رأسها بصمت، وضعت حقيبتها واتجهت نحو المطبخ.

في المطبخ كان لها أن تنفرد بنفسها وبأفكارها، بضع دمعاتٍ صامتةٍ تسللت على وجنتها بهدوء، مسحتها فيما كانت صورة جوري تحتل الجزء الأكبر من أفكارها.. هل.. حقاً.. قتلت تلك المرأة مروان!.. مروان!.. هل مات حقاً!! هل.. يعني هذا... أنها لن.. تراه مجدداً!

وفيما كانت أصابعها ترصّ البتيفور في طبقٍ مذهّب وتضعه على صينية أنيقة، تابع سيل أفكارها يجرفها في هاويةٍ تلو الأخرى

مات؟.. مروان! هل.. يعني هذا.. أنني قد صرت... أرملة!.. هل يعني هذا.. أنني سأرتدي الثياب السوداء؟.. لا لا.. أنا أكره اللون الأسود.. هو أيضاً.. كان...

دخول ضياءِ المطبخ قاطع انحدارها الجنوني نحو بؤرة الهذيان، أخذت عيناه تجولان في كل مكان، كما لو كان يمتص كل تفاصيل المطبخ بعينيه؛ توفقت نظراته عندها أخيراً.

ـ هل كل شيءٍ على ما يرام؟
كادت تنفجر في وجهه.
«على ما يرام! على ما يرام!.. تقول لي بأن زوجي قد مات.. وأنا.. على ما يرام! ما هذا الشخص المأفون!»
احتدمت الأصوات في رأسها وتدافعت محتشدةً في حلقها، ابتلعتها بصعوبة كلقمةٍ عالقة، وهمهمت بصعوبة:
ـ القهوة جاهزة.
تقدمها إلى غرفة الجلوس، العصفور كان صامتاً تماماً، التلفاز كان مطفأً، كل شيءٍ كان مثقلاً بالسكون؛ الصوت الوحيد الذي كان يعكر الصمت، كان صوت ضحكات جوري المسعورة المتراقصة في خيالها بمجون.
قدمت له القهوة، وضعت طبق البتيفور على منضدةٍ صغيرةٍ قريبةٍ منه؛ رفع أحد حاجبيه وتراقصت الابتسامة على شفتيه.
ـ بتيفور مع القهوة! سيدة منزل من الطراز الأول، جميلة، شابة، دكتورة مثقفة وتحبين فيروز.. ما الذي دفع زوجك ليكون عشيق تلك المرأة؟
أخذ رشفةً مسموعة الصوت من قهوته ثم تابع غير عابىءٍ بالدم الذي تصاعد لوجهها مع كلمة «عشيق»:
ـ هل كانت بينكما مشاكل من أي نوع؟
أحست باحتراقٍ في وجنتيها فيما كان قلبها يتهاوى.
ـ من قال بأنه...
ـ سيدتي! أمامنا معطياتٌ واضحة: زوجٌ مختفٍ، مريضةٌ مهووسةٌ بقتل الرجال، سلاحٌ عليه دم أمام منزلك، تماماً في المكان الذي أرشدتك إليه.. ماذا تقترحين؟

أطرقت رأسها بصمت مخفيةً دموع الانكسار في عينيها.

ابتلع قطعة بتيفور ثم كرر سؤاله بنفس النبرة الباردة:

ـ هل كانت بينكما مشاكل من أي نوع؟

مروان.. العاشق الخيالي، طافت بخيالها صورٌ عديدة، مقبلاً يدها بخشوع وحب، جالساً إلى جانبها على كرسي البيانو، والضحكة الجريئة تتراقص في عينيه الداكنتين، واقفاً إلى جانبها في الشرفة، ذائباً بنظراته الولهى في عينيها، لقد.. لقد.. كان يحبها!

اكتسى وجهها بأكمله بتلك النظرة الحالمة لأنثى عاشقة.

ـ مروان يحبني... نحن متزوجان حديثاً.

لكنه ذهب لأخرى أليس كذلك؟ ألم تشعري بأي شيء؟

أخذت براكين الشك تتدفق هاربةً من عقالها في سجن المنفيات داخل أعمق أعماقها.

ـ لقد.. كان.. كثير الغياب مؤخراً.. و..

ـ وماذا؟

غطت الذكرى مساحات أدراكها...

*« ـ ارتدي هذا يا حلوتي لونه يليق بكِ*

*ـ لكن يا مروان! إنه فاضحٌ جداً!*

*ـ وأين المشكلة؟ أريد للدنيا أن تسجد إجلالاً لجمال ملكتي*

*ـ مروان أنا محجبة!*

*ـ وهذا أمرٌ آخر لا أفهمه...*

*مرر يده في خصلات شعرها برقة*

*ـ لماذا تخفين جدول السحر هذا تحت غطاءٍ سخيف؟ لقد منحكِ الله الجمال.. لماذا تخجلين منه؟*

*ـ ما هذا الذي تقول!*

*سحب يده من شعرها وأعطاها ظهره خارجاً من الغرفة.*

*ـلا عليك، ارتدي أي شيءٍ من أسمالكِ تلك، وهيا بنا نذهب.»*

هل.. كان يريد.. امرأةً مثل جوري؟ هل كان عليها.. أن.. تتغير لأجله؟

ضحكات جوري ازدادت سعاراً وجنوناً في رأسها، هزت رأسها بغضب.

ـ ربما.. كان هناك بعض الخلافات.. لكن مروان كان يحبني، يحبني جداً! ما كان لينسى حبنا بهذه السهولة.

قهقهةٌ هادرةٌ جلجلت في حنجرة ضياء، ابتلعها برشفةٍ أخرى من القهوة ثم استكمل

ـ يا عزيزتي كلهن يقلن هذا، دعك من أساطير الحب وتذكري جيداً، هل تشاجرتما مؤخراً؟

ـ كان هناك.. خلافٌ بسيط... حول مريضٍ.. في العيادة

قرأ القصة من بين حروفها المترددة التوت شفتاه بابتسامةٍ ساخرة.

ـ مريض! كان يغار أيضاً! لا بد أنه كان يخشى أن تسقيه من الكأس ذاتها التي يسقيكِ.

ـ لا! لا... طبعاً لا.. كان خطأً غبياً في الأسماء، ثم.. ثم إنني طردت المريض مباشرةً بناءً على رغبته.. وعندها..

صمتت قليلاً تستجمع ذكرياتها، نظرات مروان الجائعة، ضحكة جوري المستهترة، فيما أخذ صوت قيس يتردد في عتمة نفسها بثقة:

«خذي حذرك منها»

ـ عندها ماذا؟

اقتحم ضياء صمتها المتردد، رفعت له عينين شاردتين تخفيان خلفهما وعياً متهالكاً وروحاً ممزقة.

ـ وعندها..

ـ سيدي...

قاطعها دخول محمود مخاطباً ضياء بعد أن أدى التحية العسكرية.

ـ أنهينا المهمة سيدي.

ـ الجيران؟

ـ لم يلاحظ أيٌّ منهم أيَ حركة غريبة، أكثرهم لم يتعرف على السيدة ياسمين وزوجها كونهما ساكنان جديدان هنا.

ـ تباً!.. لا بد من أن يكون أحدهم قد لمح شيئاً!

ـ سيدي قال لنا أحدهم بأن سيدةً تدعى سعاد تقطن في المنزل أسفل شقة المغدور، وهي من يعرف كل خفايا الحي.

ـ حسناً وماذا قالت هذه الـ سعاد؟

ـ لم نتمكن من استجوابها.. سيدي، فهي مسافرةٌ في زيارة لابنتها وستعود بعد يومين.

ـ حسناً اتركوا بطاقتي لها لتتصل بنا حال عودتها، وماذا عن الشقة؟

ـ لا شيء غير طبيعي سيدي، يبدو أن الجريمة تمت في مكانٍ آخر.

ـ لماذا إذاً وضعت السلاح في أصيص الشجرة هنا!... لعلها تعمدت أن تضعه تحت أنفكِ يا دكتورة؛ إنها مهووسةٌ حقاً!

استكمل كلامه مخاطباً محمود:

ـ لتعد القوة إلى المخفر وأنا سأتبعكم بعد قليل.

أدى محمود التحية ثم استدار خارجاً من الشقة، أما ضياء فقد رمى ما تبقى من قهوةٍ في جوفه وأتبعها بقطعة بتيفور.

ـ سأرسل السكين للمعمل الجنائي للتأكد من الدم والبصمات، لكنني أجد أفضل وأضمن وسيلةٍ هي الحصول على اعترافٍ كاملٍ من مريضتك.

ـ اعتراف.. كامل؟

هـزّ ضياء رأسـه، نهـض عن كرسـيه لتقف هي بدورهـا بحركة أوتوماتيكية.

ـ متى موعد جلستك القادمة؟

ـ هو موعدٌ ثابت كل ثلاثة أيام في تمام الساعة الرابعة عصراً، الجلسة القادمة يوم الأربعاء.

ـ يومين وقتٌ أكثر من كافٍ لاستصدار إذنٍ من النيابة، سـنقوم بتسـجيل الجلسـة كاملـةً وسـيكون دورك فـي اسـتدراجها لتدلي باعتـراف كامل، تؤكد فيه أنها قد قتلت زوجك بالسـلاح المحفوظ لدينا، طبعاً لن يكون هذا صعباً عليكِ.

ـ تسجيل؟

أخرج دفتر ملاحظاته من جيبه.

ـ ما هو عنوان العيادة؟

أملته عنوان العيادة بصوتٍ مرتعش، دوّنه بسرعة أغلق الدفتر، شبك به القلم ثم أعادهما إلى جيبه.

ـ موعدنا الساعة الثانية والنصف من يوم الأربعاء إذاً، لنبدأ في تحضير المعدات ونستعد جيداً لحضورها، أرجوك ألا تنشري أية معلوماتٍ عن موعدنا أو التسجيل على شبكات التواصل الاجتماعي، وخصوصاً الفيس بوك.

ـ أنا لا..

كالعادة لم ينتظر جوابها، استدار نحو الطاولة الصغيرة أخرج من جيبه منديلاً.

ـ قهوتك لذيذةٌ دكتورة، شكراً على البتيفور.

وضع قطع البتيفور في منديله ولفها، ثم استدار نحوها ببسمةٍ مشرقة.

ـ يوماً سعيداً.

سـعيداً! سعيداً!! كان ضياء عنتر أكثر المخلوقات استفزازاً على وجه الأرض بلا شـك! حدثت ياسـمين نفسـها بذلك وهي تراقبه يرحل عـن بيتها، أكد أفكارها صوت بابها يهتـز بعد أن أطبقه خلفه بعنف.

ومـا أن أغلق ضيـاءٌ الباب حتـى أخذ عصفورها يصـدح بأغنيةٍ حزينة؛ تهاوت على كرسيها.. وأجهشت بالبكاء.

## (٤)

لم تكن ياسمين التي نعرفها من دخل العيادة ظهر يوم ذلك الأربعاء؛ ثيابٌ غير متناسقة، بشرةٌ صفراء تكسو وجنتين غائرتين تدلان على أن صاحبتهما كانت قد فوتت آخر خمس وجباتٍ على الأقل، خطوطٌ داكنةٌ أسفل جفنيها المنتفخين الذين يحيطان بعينين ساهمتين لم تذوقا النوم المنتظم لأيام؛ الأيام الماضية كانت جحيماً عاشتها ياسمين في دوامةٍ من الذهول التام، يمتد بها ذهولها حتى سحب النوم الملطخ بالكوابيس، لتستيقظ فجأةً على تلك الأصوات التي كان يصورها لها عقلها المكدود، ليزيد من اضطرابها وإنهاك أعصابها، فعقلها كان يعذبها بأقسى الطرق وأشدها ساديّةً؛ كثيراً ما قفزت من مكانها على صوت إغلاق الباب وخطوات مروان التعبة على السجاد الثقيل، حتى إنها أحياناً كانت تسمع صوته الحبيب يوقظها «حبيبتي ماذا ستطعمني يداك الرقيقتان على العشاء؟» بحثت ساعاتٍ وساعات ممشطةً أركان الشقة كلها بحثاً عن مصدر الصوت، دون جدوى؛ مع الوقت، كفت

عن البحث، كانت تكتفي بإغماض عينيها الدامعتين حتى يختفي الصوت ويتلاشى في السكون المطلق؛ أحياناً كانت تحاول غسل غليان روحها بالخروج للشرفة متأملةً تلك الشجرة الملعونة، مادةً يدها نحو شرفتها لتهمس لها بسرها الدفين، كثيراً ما تمنت لو أنها تجيد لغة حفيف الأوراق علها تفهم بها همسات الشجرة المتكررة؛ ما كانت تعبأ بليلٍ ولا نهار، بردٍ أو بلل، كانت تتسمر واقفةً هناك تتأمل تلك البقعةَ المنبوشة في التراب ترى، لا زالت قطرات دمه تعانق التراب صارخةً بيأس، مرةً كانت لتقسم بأنها قد رأت جوري واقفةً إلى جانبِ جذع الشجرة ترمقها بنظراتٍ متحدّية وبسمة ساخرة، فيما التمع نصلٌ رمته في التراب بلا مبالاة، وقبل أن تهرول للشارع بثوبها المنزلي كانت جوري قد اختفت كأنها تبخرت في الفضاء.

أحياناً كانت تلجأ لعذب ذكرياتها، تقلب في خيالها صور سعادتها لتغفو والبسمة ترسم طيف راحة على وجهها المتعب، لكنها سرعان ما تقع فريسة خيالاتها التي تعاود ايقاظها على أصواتٍ وهمسات تحاول صم أذنيها عنها؛ كانت الساعة تدور وتدور وتدور دونما هدفٍ أو مغزى، منذ تلخصت كل الأرقام عليها في رقمٍ واحد «الساعة الثانية من ظهر يوم الأربعاء».

وأخيراً، وبعد طوافٍ طويلٍ في انهيارها التام... حل الموعد المنتظر، موعد استعدادها لجلستها الأخيرة، كانت سترتدي ثوباً أسود، لكنها عدلت عن الفكرة عندما تذكرت ضرورة مباغتة جوري لتتمكن من الحصول على اعترافها، سحبت بلا مبالاة أول تنورةٍ وبلوزةٍ صوفيةٍ طالتهما يداها، لفّت وشاحها بعشوائيةٍ دافنةً تحته خصلاً شعثاء نسيت تمشيطها لأيام، حذاءٌ أسود وحقيبةٌ بنية، كانت سابقةً في تاريخ ياسمين الأنيقة.

صدى خطواتها على الأرصفة الندية إثر صباح ماطر جاء حزيناً كسيراً كروحها، بضعة مارّةٍ ألقوا لها نظراتٍ جانبية خفيّة، كانت رائحة الحزن تفوح من كلّ ذرّةٍ في وجودها، نعم، لم تكن ياسمين التي نعرفها.. هي من دخل العيادة.

أول ما وقعت عليه عيناها عندما دخلت كان كرسيه، كرسي قيس؛ انحدرت من عينها دمعة استسلام وهي تطلق آهةً طويلة.

ـ آهٍ يا قيس.. لقد كنت محقاً! كان عليّ أن أحذر منها.

أشاحت بناظريها، مسحت دمعتها بسرعة محاولةً تمالك ما تبقى من أعصابها المتهالكة، لا وقت للبكاء سيحضر ذاك الشخص المستفز هو ورجاله في أي لحظة، ربما عليها أن.. تعد لهم الشاي

اتجهت نحو المطبخ، لم تكن مخطئة، ما أن وضعت الإبريق على النار حتى سمعت ذاك الصوت المزعج يصدح في صالة الانتظار:

ـ دكتورة... يا دكتورة

جففت يديها واتجهت نحو الصالة لتجده وهو يوزع تعليماته على ثلاثةٍ من رجال الشرطة، لم تميز محموداً العسكري المسكين بينهم؛ كانوا يحملون أجهزة وأسلاكاً وينظرون جميعاً لها منتظرين.

ـ دكتورة ياسمين، تبدين... (قلب ناظريه في ثيابها ثم مطّ شفته مبتلعاً الجملة ليستكملُ بنبرةٍ مختلفةٍ تماماً:) والآن دلينا على موقع غرفة العمليات

ـ غرفة الـ... ماذا؟

ـ أريد مكاناً لا يدخله المرضى لنضع فيه الأجهزة ونجلس فيه طوال الجلسة.

ـ امممم.. الـ... مطبخ مثلاً؟

ـ نعم هذا خيارٌ جيد، وحتماً سنجد فيه الكثير من بتيفورك اللذيذ.

تحركت عضلات وجه ضياء في إشارةٍ غريبة، أدركت ياسمين بعد تفكير أنها كانت غمزة؛ تجاهلتها تماماً وقادتهم نحو المطبخ، حيث ملأت لهم صحناً من البتيفور، واستكملت إعداد الشاي فيما كانوا هم يزرعون أجهزتهم في عيادتها، وضوضاءهم في رأسها؛ صبّت لهم الشاي، كانوا أربعةً فقط لكنهم كانوا قد التهموا محتويات طبق البتيفور تماماً، أخذت تملؤه ثانيةً فيما وجه ضياء كلامه لها:

ـ طبعاً تذكرين يا دكتورة، نريد منها اعترافاً كاملاً صريحاً بأنها هي من قتل زوجك، وبأنها من وضع السلاح في حوض تلك الشجرة، وسيكون رائعاً لو دل الحوار بينكما على أنها هي من دلّك على مكانه في جلستها السابقة؛ تستطيعين القيام بذلك؟

هزت ياسمين رأسها بصمت، عادوا لإصدار ضوضائهم مجدداً، جلست على كرسي جلبه أحدهم للمطبخ فيما أخذوا يتناقشون، يتسلقون الجدران، يجربون الأجهزة.. أكثر من الساعة مرّ عليها وهي سابحةٌ ما بين الوعي واللا وعي، لا تحس حتى بوجودها، حتى هم بكل ضوضائهم ما كان وجودهم يشكل إلا بقعةً باهتةً على شِبَاك إحساسها، تماماً كوجود سربٍ من الذباب يهيم في فضاء غرفةٍ مغلقة النوافذ.

ـ كل شيءٍ جاهزٌ تماماً.

كان صوت ضياء يتتشلها من غياهب اللا مكان نظرت حولها ببطء، كالمنوّمة مغناطيسياً قامت لتعدّ الشاي، لكنها لاحظت أن شرطياً ما قام بالمهمة عوضاً عنها متعرفاً لوحده على مكان الشاي والسكر وكل شيء، عادت لكرسيها مجدداً، لكن ضياء للمرة الثانية أخرجها من قوقعة ذاتها:

ـ دكتورة، الساعة الرابعة إلا ربعاً، أنتِ جاهزةٌ للجلسة؟

أخذت بضعة ثوانٍ لتعود لأرض الواقع وتستوعب ما كان يقوله، بل لتستوعب من كان هو أساساً وأين هي...

هي في العيادة.... النقيب ضياء، الكائن المستفز... سيسجلون الجلسة.... ربع ساعة.

نهضت عن كرسيها مجدداً وتوجهت لتحضر صينية الشاي المعتادة، جهزت طبق البتيفور، وعندما لاحظت نظراتهم الجائعة تركت لهم العلبة بأسرها وحملت الصينية متجهةً لغرفة الجلسات، رتبت محتويات الصينية على الطاولة وجلست في كرسيها المعتاد.

لم تكن تحتاج لدفترها اليوم، هي حتماً لن تحتاج لتدوين أي ملاحظات؛ أحست برعشةٍ تعتريها، ربما كان الجو بارداً قليلاً، فنجانٌ من الشاي هو ما تحتاج له الآن ـ حدّثتها نفسها ـ نهضت لتصب لنفسها فنجاناً من الشاي، ثلاث ملاعق من السكر حركتهم بسرعة ثم عادت لكرسيها.

لاحظت تراقص الفنجان بين أصابعها المتوترة، ترددت قليلاً.. ربما كانت فكرةً سيئة، اهتزاز فنجان الشاي كان ليكشف توترها، نهرت نفسها بعنف:

«تمالكي نفسكِ! أنت هنا الدكتورة ياسمين!، ليكن الفنجان وسيلتك لقياس درجة تحكمك بأعصابك.»

تمالكت رعشة يدها واستقر الفنجان هادئاً بين يديها، تناولت منه رشفةً صامتةً وهي تسمع وقع أولى الأقدام يطرق مدخل العيادة.

انتهى كل ما قد كان، ولم يتبقَ مني إلا ذلك الأثر المبهم..
لم يتبقَ إلا.. بقعة قهوة.

# الجلسة الأخيرة

# بقعة قهوة

## (١)

كانت أولى الوافدات كالعادة نسرين، اتجهت لتجلس في زاويتها المعتادة تحت النافذة، وبدأت ترتب أقلامها ودفاترها بسكون.

شغلت ياسمين نفسها بالسائل الدافئ ترتشف منه بهدوء فيما تتأكد من أحكام سيطرتها تماماً على أعصابها المنهكة، تمت العملية بنجاح؛ رفعت رأسها لتجد سوسن وجوري جالستين في مكانهما، نقلت نظراتها بين باب الغرفة وكرسي جلنار الفارغ عدّة مرات؛ لم تأتِ جلنار.

اصطدمت نظراتها بابتسامة جوري الهازئة.

ـ لا تنتظري عودة تلك الجبانة يا ياسمين، هي تخافني الآن، يبدو أنني قد تمكنت أخيراً من إفزاعها بما فيه الكفاية لأتخلص منها، لن تعود مرّةً أخرى.

صوت أنين كرسي سوسن شدّ انتباههما سوياً نحو تلك الفتاة المسكينة حمراء الخدين لشدة القلق، ترى كيف سيبدو فنجانٌ من

الشـاي بين كفي سوسن؟ فكرت ياسـمين بصمت، أما جوري فقد اتسعت ابتسامتها وتوجهت لسوسن:

ـ وأنتِ لماذا عدتِ؟ ألم أُفزعكِ أنتِ الأخرى؟

ارتسم استنكارٌ صادقٌ على وجه سوسن وبدهشة طفلٍ صغير ردّت على جوري:

ـ أخافـكِ؟ لا.. لا طبعـاً! أنا.. أنـا لا أخاف منـكِ، لا أخاف يا جوري، فأنـتِ.... أنتِ جميلةٌ جداً! لا يمكـن.. أن يصدر أي فعلٍ قبيح.. لا يمكن!.

أخفت جوري علامات الدهشة والتأثر عن وجهها بسرعة وهزّت رأسها الجميل بهدوء.

ـ نعم يا صغيرتي، هو ليس فعلاً قبيحاً.. هم القبيحون، هم.. هم يستحقون، كلهم.. يستحقون.

اشتدت قبضة ياسمين على فنجانها مع كلمات جوري، ربما كانت فرصتها لتخرج من جلسة العذاب هذه بسرعة!

ـ يستحقون ماذا يا جوري؟

ضحكةٌ خبيثةٌ لاحت على وجه جوري الجميل، أطّرها طلاء شفاهها الأحمر بطريقةٍ وحشية؛ رمت شعرها الناري للوراء، بشفاهها استخرجت من علبة سجائرها نديمةً جديدة، قدحت زناد قداحتها لتملأ العيادة بسحابة دخانية جديدة.

كانت المرّة الأولى التي تشعر فيها ياسمين بالاختناق من دخان سجائر جوري، تركت جوري السيجارة تتراقص بين شفتيها فيما أخذت تفرك يديها طلباً للدفء.

ـ في هـذا البرد؟ يسـتحقون فنجاناً من الشـاي وبضعة قطعٍ من البتيفور، ربما!

عادت سيجارتها لتغازل اصابعها باحتراقٍ هادئ مفسحةً الطريق لتلك البسمة الواثقة المزعجة؛ بتلقائيةٍ سألتها ياسمين:
ـ تريدين فنجاناً من الشاي؟
كادت تنهض لتحضر لها فنجاناً لكن جوري قاطعتها فوراً
ـ لا يا عزيزتي، اتركي الشاي لكِ تملئين به كفيك المرتعدتين مخفيةً ارتعاشةً إن لم تهرب من بين أصابعك فهي مرسومةٌ على مقلتيك بكل وضوح، انظري! حتى نسرين لاحظت ذلك..
حولت نظراتها نحو نسرين التي كانت بالفعل ترسم أصابع ياسمين الممسكة بفنجان الشاي ذي الزهور الدقيقة المنقوشة عليه، فيما يتطاير البخار الساخن مخفياً ملامح وجهها تماماً؛ بادلتها نسرين النظرة بابتسامة طفلٍ فخور، ثم عادت لأقلامها تضيف بضعة خطوطٍ هنا وهناك.
ران الصمت على الجميع، مرّت بضعة دقائق حتى قطعت جوري الصمت بتنهيدةٍ يائسة، سحبت نفساً من سيجارتها نفثته بسرعة.
ـ حسناً كنت أودّ أن أكمل سيجارتي لكن أعصابك لن تحتمل المزيد على ما يبدو؛ سوسن تريدين قول أي شيء؟
أطرقت الفتاة البدينة رأسها وهزّته بصمت فيما لاح بريق دمعةٍ وحيدةٍ تترقرق في زاوية عينها
ـ نسرين أنهيتِ الرسمة أليس كذلك؟
ابتسمت نسرين بسعادة ورفعت دفترها نحو جوري بحماس
ـ حسناً إذاً لنترك اللعب جانباً، ماذا تريدين أن تسمعي؟
وقبل أن ترد ياسمين أو حتى تتمالك الارتعاش الذي غزا أصابعها بعنف تابعت جوري من خلال سحابة دخان جديدة:
ـ أنا قتلت مروان، بسكين الفاكهة تلك.

صمتت قليلاً مفكرةً ثم تابعت مجدداً

ـ انتظري يريدون المزيد أليس كذلك؟ لقد دفنت السكين في حوض الشجرة أمام منزلكِ، أملاً بأن تخرجيه لوحدكِ، ولكنك لم تفعلي فكان عليّ أن أدلك على مكانه بنفسي وقد فعلت في جلستنا السابقة، هاكِ أظن هذا أكثر من كافٍ لذاك التسجيل السخيف.

صوت تحطم الفنجان وهو يتناثر أشلاءً على الأرض أثار قهقهات جوري، فيما قفزت ياسمين من مكانها متلعثمةً بكلامٍ لم تفهمه هي نفسها ثم هرولت نحو المطبخ لترمي كلماتها الغاضبة بوجه ضياءٍ ورجاله.

ـ ظننت أنك طلبت ألا يُنشر شيءٌ عن التسجيل على مواقع التواصل الاجتماعي! كيف إذاً بالله عليك عرفت جوري بأمره!

رفع ضياء نحوها عينين واسعتين، فيما رسم الذهول على وجهه ملامح عتهٍ واضح، أشار لأحد رجاله الذي خرج مسرعاً فيما تابعت ياسمين:

ـ ما معنى هذا أخبرني!

كان الغضب يلوّن صوت ياسمين، فيما استمر ضياءٌ بالتحديق بها بذهول لتهرول نظراته مستغيثةً ردّاً سريعاً من الرجل الذي عاد للمطبخ بسحنةٍ لا تقلّ ذهولاً عن سحنة ضابطه الأبله.

ـ لا أحد في العيادة كلها.. سيدي!

التفتت ياسمين نحوه لتصيبها عدوى الدهشة المرسومة على وجه الجميع.

ـ هربت! بهذه السرعة!

قاطعها صوت ضياء بحزم مصطنع، فيما كان يحاول أن يتمالك نفسه من صدمةٍ ما

- لم يهرب أحد.
- كيف!.. ألم تسمع ما قال!
- سيدتي لم يهرب أحد، لأن أحداً لم يدخل العيادة أصلاً!

نظرت له ياسمين ببلاهة، وأخذت تتنقل بنظراتها بيه وبين رجاله الثلاثة.

- ماذا تقصد.. كيف لم..
- سيدي.. سيدي

تجاهلها ضياء ونهض متجهاً نحو غرفة الاستقبال ليجد محمود بباب العيادة.

- سيدي، تقرير المعمل الجنائي، البصمات سيدي، والدم

أخذ منه ضياءٌ الملف وأخذ يقلبه بسرعة هازّاً رأسه حيناً ومحدّقاً بياسمين أخرى فيما تابع محمود:

- سيدي، جاءنا كذلك اتصالٌ من المدعوة سعاد، قالت بأن من يقطن فوقها هو الدكتورة ياسمين فقط، سيدي وأن أحداً غيرها لم يدخل الشقة منذ استئجارها من شهرٍ ونصف.

صوت خطوات ياسمين متجةً نحو غرفة الجلسات كان الصوت التالي في هذا المساء المفعم بالمفاجآت، تبعها ضياء مسرعاً واضعاً يده على سلاحه استعداداً لأي طارئ.

كانت ياسمين تقف أمام الجدار، تحديداً أمام لوحةٍ على معلقةٍ على الجدار تابع ضياء نظراتها ليجدها تحدق تحديداً في التوقيع على زاوية اللوحة «نسرين»؛ ضرب ضياء جبينه بكفّه هاتفاً

- نسرين! نسرين علّام! كيف فاتني هذا!

أخرج هاتفه المحمول وأخذ يضرب على شاشته بسرعة وبعد بضعة دقائق تراقصت على وجهه بسمة نصر فيما التمعت عيناه وهو يهتف

ـ ها هي!

رفع شاشته لتواجه ياسمين التي حدقت بها بوجهٍ خلا تماماً من أي تعبير

ـ هذه.. أنا!

كانت صورةً لياسمين مع مروان كانت البسمة تتراقص بسعادة على وجهها الرقيق الخالي من مساحيق التجميل وإلى جانبها كان مروان بعينيه الداكنتين وطوله الفارع وتلك البسمة الواثقة التي قلما كانت تفارقه، إلى جانب الصورة كان العنوان بخطٍّ أخمرٍ عريض:

«خبر الموسم، ارتباط الفن بالأدب»

أخذت الجهاز من يده وتابعت القراءة بصوتٍ غزت البحّة أركانه فخرج مكسوراً خافتاً: ((وجدت نسرين علّام في مقهى ليالينا ولم تحاول اخفاء سعادتها بعشائها الرومنسي مع الناشر المعروف السيد مروان السيد علي، مدير دار «أمل» للطباعة والنشر ولا يسعنا إلا أن نتساءل، ترى هل سترتدي نسرين الفستان الأبيض قريباً أم أنه سيكون ثوباً زاخراً بالألوان ككل لوحاتها العبقرية، تهانينا القلبية للرسامة الشابة و.... ))

التقط ضياء الهاتف الذي كاد يقع من يد ياسمين وهي تتمتم ساهمةً

ـ لكن.. هذه.. أنا!.. نسرين.. نسرين هي.. استدارت ببطء لتواجه زاوية نسرين الشهيرة تحت النافذة قاطعها ضياء وهو يضع جهازه في جيبه.

ـ نعم هي أنتِ، أنتِ لست دكتورةً أصلاً، أنت نسرين علّام الرسامة الأشهر لست أدري كيف فاتني اسم مروان في التحقيق كان علي أن.....

وفيما تابع كلاماً غير مفهوم عادت له ياسمين بعينين غائمتين فيما أخذت صورٌ، مشاهدٌ وأحداث كثيرة تتوالى متراصّةً في رأسها، متراكبةً بسرعةٍ جنونية، احتضر وعيها محتضناً اللون الأسود لتسقط في إغماءةٍ مغلّفةٍ بالظلام الدامس.

- يا لها من فتاةٍ مسكينة.

- علّق ضياء بصمت ثم التمع ضوء الفلاش وهو يلتقط لنفسه سيلفي جديدا مع القاتلة، التي تصادف لحسن حظه أن تكون نسرين علّام، بضعة ضغطاتٍ على شاشة المحمول وتم إعلان الخبر الصاعق، «نسرين علّام تقتل عشيقها مروان السيد علي في ظروف غامضة» فرك ضياء يديه فرحاً مفكراً بكم الإعجابات والمتابعات التي سينالها بعد هذا الخبر.

## (٢)

شجيراتٌ من أشواكٍ سوداء كانت تحيط بها، سجنٌ جهنمي منبثقٌ من الأرض يهاجمها بأشواكه المرعبة.

بيديها العاريتين أخذت تدفع عنها الأشواك الداكنة التي كانت تنهش جلدها الرقيق بوحشيةٍ مفرطة؛ دماؤها أخذت تسيل وتسيل وتسيل.. حتى غطى اللون الأسود كل شيء، اختفى كل شيء وغامت عينان واسعتان احتلتا مساحة الرؤية بالكامل، عينان تسكنان وجهاً بديناً رقيقاً بدأت ملامحه تتضح شيئاً فشيئاً؛ الدماء كانت تسيل دموعاً من العينين.. إنها سوسن!.. سوسن كانت تبكي، الدموع الدامية كانت تنهمر لتروي عطش شعر أحمرٍ قانٍ يكلل رأس جوري الفاتن، كانت الأخيرة تقهقه منتشيةً وهي تلوح بذاك الشعر الأحمر المجنون، أخذت خصال شعرها تلتف وتتماوج لتستحيل بحراً هادراً، ياسمين كانت تغرق تماماً في بحر الدماء، الدماء كانت تتسلل لأنفها لرئتيها.. كانت تختنق!

قفزت ياسمين من إغماءتها، تتحسس وجهها المبلل برعب، لم تكن دماءً ما كان يغطي وجهها بل ماء، أحدهم كان قد رشها ببعض المياه ليوقظها.. حمداً لله! لقد كان حلماً! كل شيء.. كل شيء كان كابوساً مزعجاً!

ـ أستاذة نسرين لقد قلقنا جدياً، كنت سأتصل بطبيب و..

أخذ قلبها يخفق بعنف اتسعت عيناها رعباً! وهي تسمع الكلمات تتواثب من بين شفاه ضياء، كلمةٌ واحدة! بل اسم.. إذاً لم يكن.. كل شيء.. كابوساً!

ـ نسرين؟.. أنا.. أنا.. ياسمين!

أخذ كلٌ منهم يحدق في وجه الآخر ببله، أزعجتها تلك النظرات بينهم وكأنهم جماعةٌ من القرود الغبية للتو رأت موزةً على شاشة التلفاز، بل ربما كانت القرود أشد ابتكاراً وذكاءً.

كانت لا زالت مستلقيةً على سجادة عيادتها، حاولت النهوض وهي تحاول استجماع أحبال أفكارها لتضع الخط الفاصل بين كابوسها وواقعها الكوارثي.

ـ ما الذي حدث.. بالضبط؟

حلّ الصخب بجمع قرود الشرطة المحيط بها، وهم يراقبون حركاتها بتوتر.

ـ أستاذة نسرين.. لا داعي للعب دور البلهاء، تفضلي معنا بهدوء لو سمحت، أنت متهمةٌ بقتل صديقك السيد مروان السيـ...

ـ ماذا تقصد بصديقي... وقتل.. اتهام!...

إنها تلك الصورة! الصورة من هاتف ضياءٍ المحمول.. هذا الغبي يحسب أنها!

ـ سيد ضياء هناك خطأٌ ما! أنا لست نسرين.. أنا الدكتورة ياسمين

شعلان، نسرين هو اسم مريضةٍ في مجموعتنا العلاجية.. لا بد من أن جوري قد..

قاطعها ضياء بنبرةٍ عصبيةٍ وصوتٍ هادر:

ـ كفي عن هذه الألعاب! لا وجود لأيٍّ من الأسماء التي ذكرتِ، لقد جلسنا أكثر من عشرين دقيقةٍ نسجل جلستك المزعومة ولم يدخل أحدٌ للعيادة سواكِ!

تراجعت ياسمين خطوتين للخلف وعيناها تنطقان رعباً، أحدهم حاول التقاط رسغها، التمعت عيناها بهلع! ونطقت شفاهها بما كان يعتمل في عقلها:

ـ لقد وصلَت لك! جوري وصلت لك! عرفت أنني كشفتها فقررت أن توقع بي أليس كذلك! تحاولون كلكم الإيقاع بي الآن!

سحبت يدها، حاولت أن تقاوم بكل قوتها.

ـ ابتعد! ابتعدوا! سأشتكيكم جميعاً! كلكم جزءٌ من مخطط تلك المجنونة.. ابتعدوا!

كان عليها أن تهرب! لا يمكن أن تسمح لهم.. لكنهم كانوا خمسة رجال! وهي كانت امرأة ضئيلة الحجم.. حطموا مقاومتها خلال دقائق لتجد نفسها مكبلةً تماماً، فيما كانوا يجرّونها خارج عيادتها إلى الشارع، حيث كانت آلاف العيون تنهشها، ترى كانت عيون جوري من بينهم! تتأكد من نجاح خطتها؟

رموها في العربة وأحاطوا بها بعضهم، كان يرميها بألفاظٍ لم تكن تتخيل أن تسمع مثلها، سعيدةٌ أنت يا جوري ولا بد! لقد انتصرتِ! الوردة الجورية هشّمت بأشواكها الغادرة أوراق الياسمين الرقيقة! لقد.. انتهى كل شيء سكنت تماماً قبعت في ظلمة نفسها تنزف جراح هزيمتها، لم تعد تهتم بأي شيء، كل شيءٍ انتهى تماماً..

سحبوها، أدخلوها وأخرجوها غرفاً كثيرة، فكوا وثاقها، أعادوا الأصفاد ليديها، نادوها نسرين مراتٍ عديدة، لم ترد، لم تكن لترد حتى لو نادوها باسمها الحقيقي.. لقد هُزِمت... وانتصرت جوري.. وماذا عن نسرين؟ هل كانت جزءاً من تلك المؤامرة؟ وضياء؟ لا بد أن ضياء آخر عشاقها وستقتله قريباً؛ فلتقتله فلتهشم وجهه الوقح ذاك، هو يستحق مروان أيضاً كان يستحق، كلهم.. كلهم يستحقون الموت!

أخذت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة، مسحتها في طرف كمها الأيسر، الأيمن كان مقيداً برسغ أحدهم.. لا يهم.. لا يهم.. لا شيء يهم.. لا أحد يهم..

كإنسان آلي تحركت كما أمروها.. كم مرّ من الوقت؟ وما أدراها، وما يهمها! تابعوا جرّها وسحبها وراءهم منحوها ثياباً ما، أخذوا ساعتها أخذوا كل أشياءها.. لا يهم.. تكلموا كثيراً بأشياء لا تهم... لم تصغ لهم.. كانت تبحث عن بقعةٍ من الفراغ في أعماقها لتختفي فيها تماماً.

انتهى مشوارها وحيدةً في غرفةٍ ما، كان على أرض الغرفة مرتبةٌ وغطاء ارتمت على المرتبة، حضنت نفسها، وراحت في سباتٍ عميق.

## (!)

وضْعُ الجنين، عندما تضم ركبتيك إلى صدرك متكوراً تماماً كأنما لتحتجب من الدنيا بأسرها؛ ذاك هو الوضع الذي تشكّلتَ فيه وأنت في رحم أمك، ربما هي إشارةٌ من واضحةٌ لأهمية أن تحمي نفسك، من هذه الدنيا الغادرة.

وضع الجنين، هو الوضع الذي تلجأ له أوتوماتيكياً إذا ما وصلت لقمة معاناتك النفسية، محتجباً داخل قوقعة ذاتك، كأنما تبحث من جديدٍ عن رحم أمك لتختبئ فيه، من كل شيء؛ هناك.. حيث لا صوت إلا صوتها، وصوت نسغ الحياة وهو يتسرب لك من خلالها بهدوءٍ وأمان.

طبعاً ذاك كان الوضع الذي اتخذته ياسمين على المرتبة التي شكّلت نهاية رحلتها الضبابية المرعبة، لتبدأ عليها رحلةً أخرى من الأحلام والأصوات المرعبة، التي أخذت تثخن روحها جراحاً وتكيل لها أنواع العذاب؛ لكنها على الرغم من ذلك، كانت مصممةً على الاستمرار في الاختباء داخل أسوار ذاتها.. للأبد.

النوم، ذاك المهرَب الذي نلجأ له عندما يتدمر كل شيءٍ آخر، فنتمنى ألا نستيقظ أبداً، لكن، مهما أملنا وحاولنا، لا يسعنا في النهاية إلا أن نهجر دفء ذاتنا ونواجه الحياة لندافع عن أنفسنا، بشكلٍ أو بآخر؛ هي غريزة البقاء التي تدفعنا للمضي قدماً مهما كان.

صرخةٌ حادّةٌ ـ كأنما صاحبتها صبّتها داخل أذن ياسمين عمداً ـ كان ما أثار غريزة البقاء الدفينة بداخلها، لتهجر تشابك أفكارها وأحلامها، وتقفز فزعةً لتتفحص ما حولها بعينين مكدودتين.

النـور أزعج عينيها ونفسـها، كانت تتوقع ظـلالاً وظلاماً، عتِمةً تتماشـى مع عتمة ذاتها؛ لكن اللون الأبيض أبهر عينيها ناشراً الفزع بين خفافيش ألمهـا، فهاجت بداخلها براكين المشـاعر المختلطة، أغلقـت عينيها لثوانٍ محاولةً اسـتيعاب تخمة أحاسيسـها، لملمت فتـات ذاتهـا وحبسـت وحوش الظـلام في ركـنٍ قصـيٍّ بداخلها، فتحـت عينيها مجـدداً لتقـع على صورةٍ شـديدة البعـد عما كانت تتخيل؛ فالجدران السيراميكيةُ البيضاء المزينة بذاك الخطِّ الأخضر العرضـي كانـت نظيفةً تماماً، لا أثر لتلك الشـخبطات الطبشـورية والبقع الماحلة التي اعتادت رؤيتها في المسلسلات، بحثت حولها بحذر، عن تلك السيدة التي ستسـتلّ من بين أسنانها موساً لتهددها به، أو وجوهاً ملطّخةً بألوان البغاء الصارخة، والعلكة الشهيرة ذات الصوت المفرقع، أو حتى ازدحـام لوجوهٍ مغبرة، عدوانية، مخيفة؛ لـم تجد أيّـاً منهم، كان يشـاركها الوجـود المكاني شـخصٌ واحدٌ فقـط، فتاةٌ علـى ما يبدو، كانت جالسـةً بهدوءٍ علـى مرتَبةٍ مجاورة تنظر في الفـراغ بصمت حاملةً على أنفها الصغيـر منظارين كبيرين ملصوقين من منتصفهما بشـريطٍ لاصق أبيـض؛ ثوبٌ نظيفٌ طويل ينسـدلُ فضفاضاً على جسـمٍ بالغ النحافة ويضيف اللمسـة النهائية

لمظهرها شعرٌ بنيٌّ قصيرٌ جداً؛ لم تدرِ ياسمين ما الذي عليه فعله هل تتصرف بطريقةٍ اجتماعيةٍ طبيعية في ظرف غير اجتماعي وغير طبيعي؟ هل تطرح عليها ملايين الأسئلة التي تدور في ذهنها، أم أن عليها تجاهلها متجنبةً صحبة سجينةٍ لا تعرف ما الذي من الممكن أن تكون قد ارتكبته بحق المجتمع، لكن، ما جرمها هي ليرموها هنا؟ ألا يمكن أن تكون مثلها تماماً، تم الإيقاع بها وإبعادها عن خانة الـ «مواطنين الصالحين» ليسلبها مواطنون غير صالحون كل وأبسط حقوقها؟

ظلّت تراقبها مترددةً بضعة دقائق محاولةً استشفاف أي شيء من تعابيرها الخرساء، في حين لم يبدُ على جارتها الصامتة أنها قد لاحظت وجودها حتى، دون أن تقطع شرودها حركت يدها لتحكّ رجلها، دقائق وعادت لتحكّ كتفها، ثم رأسها فذراعها ورقبتها، أخذت عدوى الحكاك تسري في جسد ياسمين كأسرابٍ من النمل تسعى جاهدةً لتنشر الإحساس البغيض على كل خلايا جسمها؛ أخذت تقاوم نوبة الحكاك وهي تراقب جارتها تحني جذعها للأمام لتشمّ نفسها كحيوانٍ برّي ثم تعود لجلستها السابقة، ساهمةً في الفراغ بملامح مسالمة ونظراتٍ وادعة، الحكاك كان يدفع ياسمين للرغبة بالحركة بالإضافة للفضول الذي قيّد كل أفكارها بقيود من الأسئلة الملحّة، حزمت أمرها وقررت أن تقترب؛ وفي ذات اللحظة التي كادت فيها أن تنهض متجهةً نحوها أصمّها ذاك الصراخ المرعب الذي أيقظها من النوم سابقاً، إذاً لم يكن الصراخ وليد أحلامها المشوشة! لقد صدر عن تلك الفتاة الغريبة!

صرخةٌ واحدةٌ طويلةٌ حادّة، نزقةٌ غاضبة، صدرت فجأةً وبدون مقدمات، وانتهت فجأةً كما انطلقت لتخلّف وجه مطلِقَتها هادئاً

خاليـاً من أي ملامح أو مشـاعر، بالضبط كمـا كان، لا يقطع تأملها الصامت إلا حكاكها المثير للأعصاب، لفّت ياسمين الغطاء حولها فـي حركةٍ دفاعية وسـؤالٌ ضخم يتسـع بداخلها: «أين أنـا بحقّ إله السموات».

قرقرةٌ مسموعةٌ صدرت عن معدتها لتذَكّرها بأنها لم تتناول أي طعام منذ ٢٤ ساعةٍ أو أكثر؛ نظرت للباب المترس أمامها ثم لجارتها الهادئة ظاهرياً، لا، لن تجازف.

اسـتلقت علـى مرتبتها ولفّـت ذراعيها حول بطنها فـي محاولةٍ لإخماد تلك التقلصات الموجعة، فيما عادت الأسئلة تهاجم عقلها المرهَـق لتطالبه بأجوبةٍ لم تكـن تملكها: «كيف وصلـتُ إلى هنا، ومن هو المسـؤول الحقيقيّ عمـا يحصل لي، وأين هو هذا الـ«هنا» أصلاً!»

توالـت الأسـئلة فيمـا أخـذ الفضـول يكتسـح غيوم شـعورها بالاستسـلام التام، أخذت روح المحاربة بداخلها تتغذى على بقايا الذكريـات والأحلام، تاهت في فوضى الاسـتنتاجات حتى كادت تبدو تماماً كجارتها الغريبة الأطوار بشـرودها المسـتمر في الفضاء أمامهـا، لكنها مهما حاكت مـن إجاباتٍ وحلول كانـت تعود دوماً نحو السؤال الذي ظلّ يقرع جدران جمجمتها بإصرارٍ قاتل:

«أين أنا؟»

لم تدرِ كم مرّ عليها من الوقت وهي على هذا الحال، كان الخدر قد بدأ يسري في أوصالها عندما سمعت صوت مزلاج الباب؛ انتصبت في فراشها مسرعةً، وجهت نظرةً حذرةً لجارتها لتجدها غارقةً في تأملاتها اللا منتهية، فيما أعلن أنين المفاصل الحديدية عن حضورٍ جديد.

## (٢)

عينان جاحظتان تبرزان من تحت حاجبين كثيفين مرسومين بقلمٍ أسود، أنفٌ معقوفٌ مطلٌّ على شامةٍ ضخمةٍ فاجعة، خدودٌ جوفاءَ وجبين ضيق، كان مزيجاً لافتاً من القباحة! وكأن صاحبتهم لم يكفها ذلك المأزق الذي وضعها فيه القدر فقامت بطلي وجهها بطبقةٍ كثيفةٍ من مساحيق التجميل، سميكةٍ لدرجة التشقق كتشقق طبقةٍ من الجص على جدارٍ رطب؛ كان حضوراً منفِّراً لمشعوذةٍ ترتدي قناعاً من مساحيق التجميل.

كافحت ياسمين للتغلب على كل المشاعر التي بثّها فيها حضورها، لترميها مباشرةً بالسؤال الذي ظلّ يحوم وقتاً كافياً بداخلها، ليخرج متفجراً من بين شفتيها المرتعدتين:

ـ أين أنا؟

رفعت زائرتها حاجبيها باستغراب ثم ردّت وهي تصبغ وجهها بابتسامةٍ غبية:

ـ لا تذكرين! لقد سلمتُكِ هذا الزيّ بنفسي وأوصلتك لغرفتك هذه، لكنك كنتِ شاردةً تماماً؛ لا بأس يا صغيرتي لا تقلقي، كل من يأتي هنا يأتي متضايقاً بشكل أو بآخر، وربما يكون الشرود أهون الأمور (خفضت صوتها قليلاً وكأنها تهمس) للمكان سمعةٌ سيئةٌ جداً أسوأ من الواقع ومن يدري ربما بعد فترةٌ تحبين البقاء هنا معنا.

ختمت الزائرة كلامها وهي تضع طبقاً كانت تحمله أمام جارتها لتشمه جارتها ثم تبدأ بتناول ما فيه، وعلى الرغم من جوع ياسمين الشديد فإنها استوقفتها وهي تضع الطبق التالي أمامها لتسألها.

ـ وما هو هذا المكان ذو السمعة السيئة؟

كانت زائرتها قد وضعت طبقها أمامها، فانتصبت وواجهتها قائلةً:

ـ عزيزتي، أنتِ في مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، وأنا وفاء الممرضة المسؤولة عنكِ وعنها.

بالطبع مستشفى الأمراض العقلية! فهذه الكائنة الجائمة بقربها هي التعريف الفعلي لكلمة \مجنونة\ لكن! لماذا أرسلها ضياء هنا؟ هل يصدق فعلاً بأنها مجنونة! هل هي تمثيليةٌ بارعة صدقها هو وجماعة قروده الغبية تلك! أم أنه شريكٌ لتلك الجوري! ومن يا ترى يشارك تلك المجنونة أيضاً في خططها؟ الصوت المعدني الصادر عن الباب وهو يُغلق، قطع لهاث أفكارها المسعورة، وأسرتها رائحة محتويات الطبق أمامها، كان طبقاً من الألياف الزجاجية «الفوم» فيه شيءٌ من الخبز، إلى جانب سائلٍ دبقٍ، ربما كان مربى، بالإضافة إلى مواد أخرى تداخلت ألوانها وروائحها لكن في النهاية كانت طعاماً! تراقصت معدتها متفننةً في غزل تقلصات الجوع، فقفزت

ياسمين نحو طبقها وأخذت تلتهم ما فيه، لم تتمكن بحالٍ من الأحوال معرفة ماهية ما كانت تأكل، فقد كانت تبتلع الطعام ابتلاعاً بقبضاتٍ سريعةٍ ونهم جنوني.

عندما أفرغت كلّ ما كان أمامها، اكتشفت أنها كانت منكبّةً على الطبق، تتناول منه الطعام كجروٍ ضالّ؛ نهضت بصمت، ارتمت كسيرةً على فراشها، حضنت نفسها ثم صدر عنها أنينٌ خافت معلناً غرقها في نوبةٍ من البكاء.

على الرغم من أنها لم تكن تعبة، فإن الدموع فرضت عليها غفوةً اضطرارية، لتهرب من سجن نحيبها الرطب نحو أرض الأحلام المجهولة، لحسن حظها هذه المرة رست مراكبها عند حلمٍ جميل، فحلمها كان يغازل اللون الوردي في مطعم فرنسيٍّ رومنسي، حيث تراصت على المفرش المزركش قطع الكرواسان الطازجة إلى جانب كأسٍ دافئٍ من الحليب، وطبقٍ كريستاليٍّ تفوح منه رائحة المربى اللذيذ المنزلي الصنع؛ كل هذا كان إطاراً خلّاباً للوحةٍ أشد روعة، كانت تحس بدفء يدها وهي تستكين بهدوءٍ بين يدي مروان، فيما كانت ابتسامته الساحرة ترتشف ملامحها كتحليةٍ إلى جانب فنجان قهوته المرة، شيءٌ ما.. في نظراته، كان يغري العصافير لتواصل التغريد.. أخيراً منحها عقلها واحةً وسط كوابيس واقعها الدامي، حلمٌ أو واقع.. لا يهم.. حقاً لا يهم.. ما يهم هو أنها كانت سعيدة.

# (٣)

صرخةٌ جديدةٌ هزّت أركان المهجع، وبعض المهاجع المجاورة، صرخةٌ أعلنت بكل قسوة انتهاء رحلةٍ تمنت ياسمين لو تطول.

الصراخ من هذا المهجع بالذات كان معتاداً، لكن الصرخة هذه المرة كانت مختلفة، مختلفةً لدرجةٍ دفعت المشعوذة ذات الشامة السوداء لتدخل مسرعةً لتتفحص مريضتيها بحاجبين معقودين.

ياسمين كانت في الزاوية القصية لفراشها، ملتفّةً حتى أنفها بغطاءٍ لم يتمكن من إخفاء ارتعاشها، فيما كانت عيناها معلقتان بحذرٍ بجارتها الغامضة، فيما كانت الأخيرة متقوقعةً على نفسها في أحدى زوايا الغرفة وهي تضم ركبتها لصدرها، والرعب يشعّ من عينيها الصغيرتين؛ نقلت وفاء نظرها بينهما عدة مرات ثم حزمت أمرها واتجهت لزاوية الغرفة هامسةً برقةٍ لا تتماشى أبداً مع شكلها البغيض:

ـ تقى حبيبتي، ماذا بكِ؟

خبأت «تقى» وجهها بين ركبتيها وأطلقت عويلاً بريّاً؛ ربما كان طريقتها في البكاء.

ظلّت ياسمين ترمقهما بعينٍ حذرة، فيما أخذت وفاء الفتاة بين ذراعيها مربتةً ومهدئةً حتى استكانت لها تماماً، ساعدتها على النهوض، قادت خطواتها الضعيفة نحو السرير وغطتها حتى رأسها، لتلتفت بعد ذلك لتلتقي عيناها بعيني ياسمين القلقتين.

ـ ما الذي حدث هنا؟

سألتها عاقدةً ذراعيها، شيءٌ طفوليٌّ بداخل ياسمين أخبرها بأن الممرضة القبيحة ستخرج من مريلتها عصاً سحرية وتمسخها ضفدعاً أو سلحفاة.

ـ لقد... لقد.. كانت.. تشمني!

لم تكن الصرخة إحدى تلك الصرخات القصيرة النزقة التي اعتادت تقى إطلاقها كل حين بلا سبب، لقد كانت صرخة رعب صدرت عن ياسمين؛ وكأي أمٍّ تجيد فنّ تمييز صوت بكاء طفلها عن بكاء ألف طفلٍ آخر، عرفت وفاء مباشرةً أن الصرخة لم تكن صرخة تقى فهرعت للمهجع بسرعة.

كانت ياسمين قد استفاقت من حلمها الوردي على عينين سوداوين صغيرتين، تلمعان كعيني فأر، تطلّان من وراء منظارين زجاجيين، فيما كان الأنف الصغير ملتصقاً بشعرها يتشممها، هول المفاجأة والرعب من هذه المخلوقة الغريبة زرع في حنجرتها صرخةً مدوية، أفزعت تقى التي هربت زاحفةً نحو زاوية الغرفة لتستدرّ شفقة الممرضة المشعوذة.

«أنا في قطعةٍ من جهنم» فكرت ياسمين وهي ترمق الممرضة متخذةً من غطائها درعاً وهمياً؛ لم تعلق وفاء شيئاً على كلام ياسمين، ولم تحولها لضفدع ولا لغيره، بل أخذت تجمع علب الطعام متمتمةً:

- تقى طفلةٌ مسكينة، لا تشكل خطراً على أحد؛ أما أنت...
كان يبدو أنها انتهت من تجميع العلب، فاستدارت نحوها مجدداً وتابعت:
- كلها بضع ساعاتٍ ويراك الطبيب، علّنا عندها...
ابتلعت كلماتها وهي تزمّ شفتيها، هزّت رأسها ثم رحلت.
«الطبيب... بالطبع هو الطبيب! سأخرج من هذا الجحيم المصغّر لأرى إنساناً عاقلاً واعياً» فكرت ياسمين وهي تستلقي على فراشها متجاهلةً الأنين الخافت الصادر عن تقى، مركزةً كل أفكارها في المقابلة المنتظرة؛ مهما هطلت أمطار المأساة؛ لا بد من أن تنقشع الغيوم ولو جزئياً، عندها يعاود الكون نشاطه من جديد، الزمن لا يتوقف مهما كان حجم فجائعنا وهول مواجعنا، لا بد من أن نستمر.
بهذه الفكرة أخذ الأمل يتسرب لداخلها شيئاً فشيئاً وهي ترسم صورةً قدسيةً لطبيبٍ منقذ، سيكون الرحمة الإلهية لها من مستنقع الجنون الذي وقعت فيه... بعد بضعة ساعاتٍ فقط.

## (٤)

البضع ساعاتٍ التالية لم تكن أكثر من انتظارٍ مضنٍ وترقبٍ زرعته بالأفكار وبمحاولاتٍ يائسةٍ لترتيب أوراق استنتاجاتها، لكن وبعد محاولاتها المضنية، اكتشفت بأنها كنت تفتقر لأية معلوماتٍ حقيقية لتتمكن من بناء استنتاج ذي قيمة.

لم يكن عليها إلا أن تقابل ذلك الطبيب، ليكون صلتها بالعالم الواقعي بعيداً عن هذا الواقع الهزلي، الذي وُضعت فيه بلا مقدمات! هو سيفهمها وسيدرك أنها عاقلةٌ من بداية اللقاء، بل وسيساعدها على الإيقاع بجوري، ستستعيد حريتها وسيصبح صديقها للأبد!

كادت ياسمين تقفز فرحاً عندنا سمعت صوت الباب، وعلى الرغم من الغصّة التي غزت حلقها وهي تخضع ليد وفاء، وهي تقيدها بتلك السترة المهينة التي طالما شاهدتها على شاشات التلفاز «سترة المجانين» كان الأمر مؤلماً جداً لكن أملها تمكن من دفعها قدماً، فابتلعت ما انسكب من كرامتها إلى جانب بضعة دموعٍ محتضرة، وسارت معها بهدوء وتوتر نحو غرفة مخلصها.

غامت قسماتها حين فُتِح الباب، وغابت بسمة الأمل عن وجهها. حسناً.. لم يكن شكله أبداً كما تخيلت، هي لم تكن قد صوّرته فعليّاً في خيالها، لكن بالتأكيد هي لم تكن لتتخيل الشكل الماثل أمامها.

كان نحيلاً جداً... جداً! كخيال مآتة، جبهةٌ ضيّقةٌ التصق بها حاجبان رفيعان يؤطّران عينين بالغتي الصغر، تكادان تختفيان خلف نظّارةٍ ذات إطارٍ دائري، وجنتان مرتفعتان بارزتان، أنفٌ دقيقٌ طويل، يبعد مسافةً مبالغاً فيها عن شفتيه.. لا.. لا.. لا شفتان! بل كان شقّاً عرضيّاً مكان الفم تبرز تحته ذقنٌ رفيعةٌ كان لا بد أن يكون صاحبها عديم الذوق أو الإحساس تماماً ليقرر أن يزيد من طولها بإنماء لحيةٍ صغيرةٍ مستدقةٍ كذقن العنزة، في حين ترك رأسه حليقاً ليزيد من بروز الأذنين الخفاشيّتين.

ابتلعت ياسمين صدمتها فيما كانت الممرضة تقودها لتجلس بهدوءٍ على الكرسي القائم أمام المكتب الذي أغرقته الفوضى.

اهدأي يا ياسمين، اهدأي، ليس مهماً كيف يبدو، المهم أن..

ـ صباح الخير.

ـ صباح النور.

ردّت عليه بهدوءٍ راسمةً ابتسامةً ورديّة، محاولةً أن تترك لديه انطباعاً حسناً.

ـ أنا الدكتور عماد، عماد الدين خوجة، سأكون معكِ في الأيام القادمة.

ابتسامةٌ لطيفةٌ كانت تطفو على وجهه، لكن للأسف كانت ابتسامةً أعطته مظهر مصاص دماءٍ شرير؛ لم يكن الخوف الذي ارتسم على وجهها في صالحها أبداً، لذا حاولت أن تمحيه بسرعة لترد عليه بأدب ولباقة:

ـ تشرفنا دكتور عماد، أنا الدكتورة ياسمين شعلان.

رفع أحد حاجبيه وعدّل من وضع النظارة على أنفه، وهو ينظر في الأوراق القابعة أمامه على المكتب، ليرتدي بعدها ابتسامةً باردة ويسألها بهدوء:

ـ كم تبلغين من العمر؟

ـ أربعاً وثلاثين سنة.

ـ بماذا تشعرين الآن؟

لقد كان ذلك السؤال هو السؤال الروتيني الأول في سلسلة «كيف تصبح طبيباً نفسياً في سبعة أيام» توترت زاوية فمها وهي تردّ عليه بانزعاج:

ـ أنا لست مريضةً يا دكتور بإمكانك اكتشاف هذا بسهولة، أنا طبيبةٌ نفسية، هناك خطأٌ ما، مكاني بالتأكيد ليس هنا!

اتّسعت الابتسامة الباردة على وجه عمادٍ الذي هزّ رأسه بهدوء.

ـ طبعاً، طبعاً، مكانكِ ليس هنا، لكننا نودّ أن نطمئنّ على سلامتك لا أكثر؛ لكنني أحتاج منكِ أن تردّي على أسئلتي؛ كيف تشعرين؟

نظرةٌ واحدةٌ له كانت تكفي لتدرك بأنها لسببٍ ما قد خسرت معركتها الأولى؛ شيءٌ ما مكتوبٌ في تلك الأوراق أمامه ربما؛ تبّاً لذلك اللعين ضياء ترى ما الذي كتبه عنها؟ الرجل الآن يحسبها مريضةً عقليّاً، لا شكّ في ذلك، كانت تعرف أن الأمر لن يكون سهلاً.. لكن... لكنها لم تتوقع طبيباً غبيّاً متحجراً كهذا!.

نظرت له لتجده يتابعها بهدوء متأملاً انطباع الانفعالات على وجهها، تجاهلته قليلاً وأخذت تفكر برويّة، لم يبقَ أمامها إلا أن تلعب لعبته، فتردّ على أسئلته كما يشاء حتى يكتشف مع الوقت واقع سلامتها العقلية، أف! سيأخذ الأمر وقتاً طويلاً مع غبيٍّ مثله، لكن لا بديل!.

ـ أشعر بالضيق، الملل والجوع.
ـ موعد وجبة الطعام ليس ببعيد، ستحملها لكِ وفاء بعد عودتك لغرفتك.

تململت وهو يذكر بؤرة الجحيم تلك، وهي تتذكر جارتها المختلة، بما أن إقامتها هنا ستطول إذا لا بأس من محاولة لتحسين ظروفها، ثم إنه كان من المهم أن تبيّن له إدراكها لقوانين الاصطفاء، وبأن إحساسها بموقعها الاجتماعي لا زال ماثلاً لديها.

ـ الطعام سيء، وقد وضعوني مع فتاة مجنونة تشتم كل شيء من حولها.

فكرت أن تقول ككلب جرب لكنها تذكرت وجه وفاء وحرصها على الفتاة، نظرت له باحثة عن أي ردة فعل، لكنه لم يعلّق، اتّسعت ابتسامته المنفّرة تلك مجدداً، لكنه لم يعلّق بشيء؛ تراه فهم

ـ هل ضايقك أحدٌ من طاقم المستشفى؟

طارت أفكارها نحو مشعوذتها وفاء، الاسم كان لا يلائمها إطلاقاً! تلك الممرضة وشكلها المنفّر البغيض، لكن ليس القبح جريمة؛ في الواقع.. لقد كانت حساسة وتحاول أن تكون.. لطيفة ربما، على الأقل هي ليست متوحشة أو قاسية، أو باردة كما تتوقع في مكان كهذا.

ـ لا... لم... يضايقني أحد.

تأمّلها مجدداً بصمت، فزادت على صمته صمتاً ثم قررت أن تهرب من حصاره النفسي فسمحت لأفكارها بأن تتسرب من خلال تلك النافذة التي كانت تتوسط الجدار المقابل لها، النوافذ أبوابٌ نطلق منها أرواحنا نحو عوالم بعيدةٍ عن سجن جسدنا والظروف المحيطة، لتسرح في السماء البعيدة دقائق أو ساعات، منظفةً ما يعلق بها من شوائبنا، كان المكتب يقع في الطابق الثاني، أو الثالث

على أقصى تقدير، قطع عمادٌ الصمت ليسألها بتلك النبرة الهادئة الباردة:

ـ هل تسمعين أصواتاً غريبة؟

اتّسعت عيناها وهي تدرك اتجاهاته للتشخيص المبدئي.

ـ لا! لا يا دكتور لا! قطعاً أنا لا أعاني تهيؤاتٍ أو رؤى من التي تلمّح لها!

لم يلقِ بالاً لردّها الغاضب، وتابع بنفس النبرة الباردة:

ـ هل تشعرين بالرغبة في إيذاء أحدهم؟

فجأةً أخذت صورة جوري تتراقص في خيالها، بتلك الضحكة المستهترة، بشعرها الناري اللامع، لا لم يكن ناريّاً كان دمويّاً! أحست ببراكين الغضب تتفجّر بداخلها! هي هنا، تتعامل مع هذا الطبيب اللعين، وتلك المجنونة تمارس جنونها في الخارج بحريّة! كبحت ياسمين جماح غضبها بصعوبة، طردت الصورة من رأسها بسرعة لتهزّ رأسها نافيةً سؤال عماد، وهي تتساءل إن كان قد شعر بنوبة غضبها الداخلي المكبوتة تلك، كان يملأ أوراقه بالملاحظات. لا.. لن يتمكن من التقاط أحاسيسها وأفكارها بهذه المهارة، إنه طبيبٌ غبيٌّ متحجر العقل، يطرح الأسئلة بروتينيةٍ مستفزّة، ليس أكثر من ترسٍ ضمن مجموعةٍ مبرمجةٍ من التروس المتآكلة تجمعها آلةٌ قديمةٌ عفى عليها الزمن، اسمها مستشفى الأمراض النفسية؛ لهذا السبب بالذات لم تفكر يوماً بالتقدّم لوظيفةٍ حكومية؛ عادت بذاكرتها لتلك الفتاة التي كانت تتشاطر معها الغرفة، الإهمال النفسيّ كان بادٍ عليها، لا عجب، إن كان هذا طبيبها!

عادت تنظر له، كان قد فرغ من تسجيل ملاحظاته وأخذ يتأملها في سكون، غيّرت رأيها، هو لا يبدو كمصاص دماء، لمصاصي

الدماء رقيٌّ وبهاء، مصاصو الدماء أكثر إثارةً للاهتمام؛ لقد كان بجلسته هذه يشبه مومياء فرعونية متآكلة؛ ما الذي كان ليشعر به لو كان جالساً مكانها؟ وقبل أن تحسب أبعاد تصرفها، وجدت نفسها تضع الفكرة قيد التنفيذ:

- وأنت ما الذي تشعر به؟

رفع حاجبيه الرفيعين ثم غرق في نوبةٍ من الضحك، أزعجها ضحكه جداً فاستطردت:

- قلت لك، أنا لست مريضة! أنا طبيبة نفسيةٌ مؤهلة.

رفعت رأسها بكبرياء وتابعت

- قد أكون مؤهلةً أكثر منك شخصياً.

رماها بنظرةٍ ساخرة وعاد لأوراقه يسجل عليها آخر ملاحظاته؛ لقد كان خطأً فادحاً! جرَفَها إحساسها فنسيت أنه من كان عليها أن تكسب لتتمكن من الخروج من هذا المكان!

عدّل الدكتور من وضع النظارة على أنفه مجدداً وطفق يراقبها بهدوءٍ كأنما ينتظر ردّة فعلٍ جديدة، وجدت ياسمين نفسها تتلعثم معتذرةً

- أنا آسفة، لا بد أن هذا المكان، يؤثر على أعصابي.

- هل تشعرين بالغضب؟

أحسّت كأنها فأرٌ وقع في مصيدة؛ صمتت قليلاً، لم يحاول استعجالها أو طلب أي ردٍّ فوريٍّ منها، كان يكتفي بتأمله البارد لها من خلف تلك النظارات الدائرية اللعينة، ذاك الرجل البارد! بالطبع هي غاضبة! غاضبةٌ من غبائه المفرط، غاضبةٌ من الغرفة القذرة، غاضبةٌ من ممرضتها المزعجة، ما كانت لتسمح لمثلها أن يقترب منها! غاضبةٌ من وجبتها المقرفة، غاضبةٌ من الجوع ومن الإحساس

بالعجز، غاضبةٌ من الاحساس بالانتهاك! غاضبةٌ من مروان؛ لماذا تورّط مع جوري... هل تورّط حقاً معها؟ نعم كانت غاضبة، كانت غاضبةً جداً من ذلك الضابط المتخلّف؛ كانت تتمنى أن تقتله تلك المجنونة ليلقى جزاء رميه لها هنا، كانت غاضبة.. غاضبةً من هذه السترة والحكاك اللعين، بدأت تحس بالحكاك في رقبتها، رفعت ذراعها قليلاً محاولةً الوصول بكتفها لرقبتها، تخلصت من حكاك رقبتها، لكن الإحساس المزعج أخذ يزحف ليغزو جسمها كاملاً، بدأت تتململ بضيق، محاولةً الحركة للتخلص من الشعور البغيض. هزّ عماد رأسه وعاد ليكتب على أوراقه مجدداً، صوت قلمه على الأوراق أزعجها، كادت تصرخ فيه! «ماذا تكتب أيها الغبي! ماذا تكتب!»

ـ وفاء.. وفاء.

لم تكن تتوقع أن تشعر بالسعادة لرؤية وفاء الكريهة، لكنها كانت تريد أن تخرج من هذه السترة بأي ثمن، دقائق وكانت تقبع في غرفتها بهدوء مع تلك الـ«تقى» ونظراتها المخيفة.

وكم كانت سعادتها عارمةً عندما ـ وبعد مجهودٍ مضنٍ للهرب من نظراتها الفضولية ـ سمعت صوت أنفاسها ينتظم بهدوء، لقد نامت؛ زفرت ياسمين بارتياح وهي تسترخي قليلاً على فراشها المنخفض غارقةً في أفكارها، محاولةً بأي شكل أن تضفي شيئاً من المنطقية على كل ما هو غير منطقيٍّ حولها، هي فعلاً في مأزقٍ حقيقي، مأزقٌ يحتاج لتجنيد كل قواها وطاقاتها في سبيل هدفٍ وحيد: أن تخرج من هذا المكان.. بأي ثمن!؛ لكنها مهما حاولت أن تغزل من حيل وخطط، كانت تجد سبلها جميعاً تنتهي في هوة سحيقة يتردد فيها صدى ضحكة جوري الظافرة؛ حسناً، على الأقل كان الطبيب محقاً

بشأن الطعام، فلم يمضِ وقت طويلٌ قبل أن تفتح ممرضتها الملونة الباب حاملةً الأطباق الفلينية المعتادة.

لم تكن الوجبة سيئةً للغاية ـ فكرت ياسمين ـ وهي تنظر لقطع الدجاج المصطفة إلى جانب الأرز الساخن، كان هناك أيضاً شيءٌ من السلطة التي تكاد تبدو طازجة، كانت وجبةً صحيةً تماماً.

تذكرت ياسمين كرامتها الجريحة وهي تأكل من الأطباق الفلينية ككلبٍ ضالّ، فكرت بمقاطعة الطعام تماماً، لكن أصواتاً صدرت عن بطْنها محتجةً على تلك الخطة، جلست بكبرياء، ووضعت الطبق في حجرها، أمسكت الملعقة البلاستيكية بأطراف أصابعها كما لو كانت في مطعم انكليزي راقٍ، وغرفتها في الطبق لتتذوق قطعةً من الدجاج؛ من طَبخ هذا الدجاج لا يتذوق ما يطبخه، وهو بلا شك لا يجيد الطبخ إطلاقاً! فالقوام الإسفنجي والطعم المسلوق منحها إحساس من يمضغ التبن، لكن معدتها أنّت مطالبةً بالمزيد، حسناً لا يهم، تناولت وجبتها بهدوء ووضعت الطبق جانباً؛ من حسن حظها أنها تجيد السيطرة على مشاعرها تجاه الطعام، فهي تعرف جيداً كيف تحافظ على مسافة أمانٍ من لغم قد يكلفها رشاقتها التي كلفها نحتُها الكثير؛ هي لا تهتم حقاً بالطعام أو طعمه، الطعام مجرد وقودٍ يملأ جسمها ليساعدها على المضي قدماً، في الحياة أشياء أهم وأجمل، وأسمى.

«وقال هذا حصرمٌ» مقولةُ إيسوبية(*) كانت تنطبق عليها تماماً؛ ففي نفس الوقت الذي كانت فيه أفكارها تتصنع الكبرياء والأنفة

---

(*) إيسوبية: كناية عن الحكيم إيسوب الذي روى قصة ثعلب حاول أن يطال العنب ولما كان العنب عاليا جداً قال: هذا ليس عنباً إنما حصرم حامض الطعم وهي تدل على من يذم ما لا يستطيع الوصول له

وعدم الاهتمام، كان لعابها يسيل تنفيذاً لرغبةٍ بدأت تحتل حواسها، شيءٌ ما في جسمها كان يطالبها بنكهةٍ خاصةٍ جداً: الشوكولا، ذلك الإدمان النسائي الشهير، الفاتنة البنية التي قيل بأن لها القدرة على طرد كل الأحزان، لتكون تذكرةً مجانيةً لعالم من السحر والفتنة، أو على الأقل هكذا يصورونها في إعلانات التلفاز، خفُت صوت أفكارها شيئاً فشيئاً وتسللت الرغبة الملحة لتملأها وتستولي عليها «.. ربما.. قضمةٌ من الشوكولا كان ليكون لها أثرٌ كبير في موازنة مشاعري المضطربة»

ـ هذا صحيح.. صحيحٌ تماماً يا دكتورة، هذا صحيح.. فالشوكولا دوائي السحري الخاص، بإمكانها فعلاً معالجة كل الهموم، كلها تماماً؛ فالشوكولا البيضاء تمنحك إشراقة طفلٍ حصل على يوم عطلةٍ مفاجئ، نعم طفلٌ سعيد؛ والشوكولا البنية فلهاً سحر العشاق، تسحرك تماماً كما لو كانت ملايين كلمات الغزل، نعم ملايين مجتمعة فتذوب بين شفتيكِ برقة وعذوبة لتعانق كل حواسكِ؛ وأما الشوكولا السوداء، تلك الشوكولا الراقية بمرارها الممزوج بالحلاوة القصوى لها قوتها في فرض وجودها، تفرض وجودها لتعلمكِ بأنك ستكونين سعيدة شئت أم أبيت مهما كانت المرارة من حولك.. و.. مالك يا دكتورة.. لماذا تنظرين لي هكذا، لماذا تبدين.. تبدين خائفة؟

لم تكن ياسمين قد استمعت لهذا الخطاب الخجل الطويل فمن أول حرفٍ نطقت به سوسن قفزت كالملسوعة من مكانها، محدقةً برعبٍ في الوجه المتفخ، فيما تتحدث صاحبته بخجلها المعتاد وهي جالسةٌ تماماً إلى جانب تقى، المنشغلة عنهما بتذوق أصابعها الواحد تلو الآخر.

جربت إغماض عينيها، سد أذنيها، هز رأسها، سدىً؛ لا لم تكن

خيالاً! وجود سوسن في الغرفة ذاتها كان حقيقياً تماماً! سوسن.. كانت هنا!

ـ جـ... جـ.. جوري.. جوري أوقعت بكِ.. هنا؟

ارتسمت ابتسامةٌ لطيفةٌ وجه نسرين، لكنها ظلت صامتة؛ اقتربت منها ياسمين بحذر، اقتربت أكثر.. وأكثر؛ وما أن لامست قدمها سرير تقى حتى هجمت الأخيرة نحوها تدفعها صارخةً بغضب قطٍّ شرس داس أحدهم على ذيله، ضحكت سوسن بخجل، وتلاشت تماماً في الفراغ.

ـ ما الذي!.. لا.. لا لا لا لا لا لا لا لا لا لا.. لا! هذا ليس حقيقياً لا! لا!.

تراجعت ياسمين متهاويةً على فراشها وأخذت تهزّ نفسها للأمام والخلف حاضنةً نفسها بكلتي ذراعيها.

«هذا ليس حقيقياً يا ياسمين! هذا ليس حقيقياً! إنه ذلك الطبيب الغبي لعنة الله عليه!.. نعم هو ذلك المأفون زرع تلك الفكرة في ذهني بأسئلته الغبية فجعلني أشعر كأنني.. بأنني.. لا لا لا. هذا خطؤه هو.. هو ذلك الطبيب.. كيف! كيف حصل على شهادته! كيف.. كيف يعهدون له بمرضى حقيقيين سأجعله يندم.. سأخرج.. سأخرج من هنا وسأجعله يندم، سأشتكي عليه وأقاضيه، سأفضحه في كل وسائل الإعلام، سأجرده من كل شهاداته! سأعلمه كيف يلهو مع من هم مثلي! ذلك التافه.. هو من سيجلس هنا في مشفى الأمراضِ العقلية مسجوناً مع مجنونةٍ بلهاء، سيدفع الثمن!»

قهقهةٌ عاليةٌ جاءت من ورائها جعلتها تقفز ملتصقةً بالحائط.

ـ حبيبتي أخيراً بدأتِ تفهمين، هؤلاء البؤساء مكانهم في عالمٍ خاصٍ بهم وحدهم، ليس لهم مكانٌ بيننا! أخيراً فهمتِ.

وهنا استولى الغضب على ياسمين بالكامل! كانت تريد أن تقفز وتمزق الضحكة المتعالية على وجه جلنار، أخذت ترميها بالوسائد والأغطية حتى بطبقها الفارغ.

ـ اذهبي من هنا! ارحلي! ارحلي! ارحلوا كلكم! ابتعدوا عني!

وفي خضم ثورتها العارمة لم تأبه لصراخ تقى ولا لدخول وفاء جرياً مع ممرضتين أخريين كانت تلوح ذراعيها بغضب، تدفعهم، تبعدهم فيما يحاولون تطويقها بالسترة ذات الأكمام الطويلة تلك، بركان من الغضب كان يفور بداخلها.. طفح الكيل! هم يحاولون أن يدفعوها للجنون! متآمرون كلهم، لقد تآمروا مع جوري، ومروان، وضياء.. لا! لن تسمح لهم أبداً..

ـ ماذا تفعلون بي! ابتعدوا عني! ابتعدوا كلكم!

وجوهٌ حزينةٌ كانت تحدق بها، فيما كانت تنسحب رويداً رويداً نحو الظلام وهي تتمتم بضعف:

ـ دكتورٌ غبي.

## (٥)

فتحت عينيها ببطء؛ اللون الأبيض مجدداً، كم تكره هذا اللون!

لم تحاول أن تنهض من رقدتها، لم تتحرك حتى بل ظلّت تحدق في اللون الباهت الكريه في صمت؛ من قال عن اللون الأبيض إنه لون الملائكة؟ من نصّبه رمزاً للبراءة والنقاء؟ على العكس تماماً! هو لونٌ لا مشاعر فيه أو أحاسيس، لونٌ عديم التعبير، لون صفحةٍ بيضاء خاليةٍ من الأفكار، لون غيمةٍ لا يحمل رحمها مطراً يبلل شوق الأرض العطشى، لونٌ بارد! لون الجليد والصقيع، لونٌ غبي! كل شيءٍ هنا كاللون الأبيض باردٌ وغبي!

خرجت من بحر الكراهية الهائج بداخلها ونهضت قليلاً لتتفحص المكان من حولها، لم تكن في غرفتها القديمة مع تقى، كانت غرفة أصغر قليلاً وأشد ابيضاضاً من سابقتها حتى... حتى إن جدرانها كانت تبدو طريةً كأنما! ـ لمست أصابعها الجدار المبطن ـ نعم، لا شك في ذلك، لقد كانت في غرفة العزل الخاصة بالمرضى شديدي الخطورة؛ ترى.. هل آذت أحداً!

لاحت ضحكة جوري المتوحشة مطبوعةً على اللون الأبيض لتلتهم ما تبقى من رباطة جأشها، أغمضت عينيها بسرعةً لتهرب من ألم جراحها الناتئة، سبحت بهدوء داخل ظلمة ذاتها بعيداً عن اللون الأبيض المقيت؛ وما بين الأبيض والأسود أحست بأنها وحيدةٌ جداً... وحيدةٌ في مواجهة واقعٍ قاسٍ ويزداد قسوةً وجنوناً!

هي لم تشعر بالوحدة من قبلُ، حياتها كانت دوماً مرصّعةً بالمشاعر والأحاسيس وصخب الحياة والأحياء من حولها، لكنها الآن كانت قابعةً بصمت، بعيداً عن مجرى سير الحياة وألوانها العديدة أسيرةً للون الأبيض الميت.

حضنت نفسها وأخذت تربّت على كتفها، تحشرج صوتها محاولاً إنشاد أغنيةٍ حزينة تهدهد بها وحوش ذاتها الضائعة لكن صوتها كان أشد انكساراً من مشاعرها المحطّمة، فصمت لسانها واكتفت بالدندنة المتقطعة بغصات البكاء، عيناها كانتا مضرجتين بالملح والألم لكن الموسيقى الذاتية انسابت دموعاً من مقلتيها مقتحمةً صحراء وحدتها القاحلة.

أحست بالبرد، ومهما حضّنت نفسها بأغطيتها الرقيقة، كان البرد ينسكب من داخلها ليغمر جسدها بالكامل، أطرافها كادت تتجمد، فازدادت التفافاً على ذاتها وأخذت ترتعد، صوت قفل الباب أعلن عن حضورٍ جديد، حضور وفاء التي بدت بألوانها الشنيعة أخفّ وطأةً من اللون الأبيض اللا منتهي الذي كان يحاصرها، حاولت أن ترسم ابتسامةً على شفتيها المرتعدتين سدىً؛ رمقتها ممرضتها الملوّنة بنظرةٍ حزينة وهي تلفّ جسدها بغطاءٍ أبيضٍ كانت تحمله معها.

ـ لا بأس، اهدأي يا صغيرتي، اهدأي، لا بأس.. أنتِ بخير.

أغمضت عينيها طاردةً ما كاد يشرد من دموعها المحتبسة، تأججت كرامتها رافضةً الانسياق وراء ضعفها، نجحت هذه المرة في رسم ابتسامةٍ شجاعةٍ على شفتيها؛ أطلقت وفاء تنهيدةً وأعقبت:

ـ بعد قليلٍ ستتجه سوياً نحو الطبيب.

أشاحت ياسمين وجهها بعند طفلٍ صغير.

ـ لا، لن أذهب أبداً لرؤية ذلك الطَّبيب الغبي!

ـ دكتور عماد! دكتور عماد ليس غبياً يا صغيرتي، الدكتور عماد كان فقط...

شبكت ياسمين ذراعيها على صدرها بتحدٍّ، ربما أدركت وفاء بخبرتها أنها تخوض معركةً لا طائل منها.

ـ حسناً لا يهم، على كل حالٍ لن نذهب للدكتور عماد، هذه المرة ستذهبين للقاء الدكتور فؤاد، علّه يتمكن من اجتياز حاجز الأشواك الذي نصّبته حول نفسك!

استدارت ياسمين نحوها لترمقها بعينين متسائلتين، إلا أن وفاء تجاهلت نظرتها واتجهت نحو الباب متمتمةً بصوتٍ خفيض:

ـ كان الله في عونكِ.

رحلت وفاء، وتركت ياسمين لتغوص مجدداً في بحر اللون الأبيض، لكنها هذه المرة لم تكن وحيدة، كان معها خيالٌ مبهم لشخصٍ.. يدعى الدكتور فؤاد.

## (٦)

بدينٌ، أصلعٌ، قصير، يؤطِّر صلعتَه تاجٌ من الشعر الأبيض، فيما يحتل نصف وجهه حاجبان كثّان رماديان وشاربٌ يفوقهما كثافة ـ ربما كان يستعيض بشعر الوجه عما فقد من شعر الرأس ـ لكنه بالإجمال كان مظهراً مريحاً أكمله ببذلةٍ أنيقة داكنة ورباط عنقٍ مرقّط يبدوان من تحت المعطف الطبي الأبيض النظيف، حسناً لقد كانت الصورة المثالية للطبيب كما ودّته أن يكون.

إحساسٌ عارمٌ بالارتياح غمرها وهي تجلس أمام مكتب الدكتور فؤاد المنظّم؛ الجوّ كان ماطراً في الخارج وهي تحب المطر، المطر يغسل تراب الأكاذيب ويضفي لمسةً من الصدق والنقاء على كلْ ما حوله، ربما.. ربما كانت إشارةً ربانية.. ربما يتمكن هذا الطبيب من كشف الحقائق المدفونة تحت أكاذيب جوري وخدعها.

أغمضت عينيها، ومن أعماق قلبها أرسلت أمنيةً صادقة: «كن مطراً يا د. فؤاد... كن مطراً أرجوك!.»

ـ صباح الخير.

رافق سلامه ابتسامةً لبقةً كانت تليق بوجهه الواثق، بدورها رسمت ياسمين على شفتيها ابتسامةً رقيقةً وردّت بأدب:

ـ صباح النور.

ـ أنا د. فؤاد عجم، استشاري الطب النفسي في المشفى هنا وعضو هيئة التدريس في جامعة ق.

كان لقباً ضخماً لرجلٍ تدرج على سلالم النجاح في مهنة الطب النفسي، كان رجلاً جديراً بالثقة، الرد الطبيعي كان:

ـ تشرفنا يا دكتور.

ـ الشرف لي سيدتي الكريمة، هل لكِ أن تعرفيني على نفسكِ لو سمحتِ؟

ـ ياسمين، أنا الدكتورة ياسمين شعلان.

ـ دكتورةٌ إذاً! في أي تخصصٍ يا دكتورة؟

أشعة الأمل أخذت تغمر ذاتها الغارقة في ظلال اليأس منذ أمد طويل، فردت عليه بحماسة:

ـ دكتورةٌ في الطب النفسي.

ـ الطبّ النفسي؟ زميلةٌ أنتِ إذاً.

ـ أتشرف بذلك سيدي المحترم، حمداً لله! خفت أن تناديني أنت أيضاً بذلك الاسم البغيض!

ـ أي اسم؟

غام وجهها قلقاً وهي تنطق الحروف الخمسة بتردد

ـ نـ... نسـ.. نسرين؟

ـ ولماذا أدعوكِ بهذا الاسم تحديداً؟

ـ لست أدري حقاً! لكن الجميع باتوا ينادونني بهذا الاسم!

كأنهم جميعاً مصرّون، مصرّون على أن يلصقوا بي أشياء كثيرة لا أفهم معظمها؛ لذا...

صمتت قليلاً محاولةً استقراء ملامحه، قبل أن تتابع

ـ لذا أحتاج مساعدتك يا دكتور.

ـ من دواعي سروري أن أساعدك، في الواقع هذا واجبي!

صمت الدكتور قليلاً ليدوّن ملاحظةً سريعةٍ على ورقةٍ أمامه ثم عاد إليها متسائلاً:

ـ أخبريني إذاً يا دكتورة، من هم هؤلاء الذين يصرون على إلصاق أشياء بكِ؟

بدأ القلق يمد شباكه اللعينة ليصيد نور أملها الوليد، ها قد وصلت لمفترق الطرق! كان عليها أن تتحلى بالشجاعة.

ـ حسناً، بدايةً هناك دكتورٌ آخر هنا، اسمه الدكتور عماد، وقد...

لا! لن تروي له قصة الفصام تلك! لو سمع عن تهيؤاتها تلك في الغرفة لقضي الأمر! هي لو كانت مكانه لظنتها مجنونةً تماماً!

ـ وقد ماذا؟

ـ وقد... بدا بارداً تماماً، ولم يتفهم أي شيءٍ مما أخبرته به.

مرّت الكذبة بسلاسة، عليها أن تكون أكثر حذراً في المرة القادمة، قدرها كاملاً معلقٌ بهذه المقابلة، لا سبيل للفشل!

ـ ألهذا السبب دخلتِ في نوبة الغضب تلك، ورحت تصرخين بأنه دكتورٌ غبي؟

ـ نـ.. نعم.. تقريباً.

أسند د. فؤاد مرفقيه إلى الطاولة ليحمل ذراعاه المتشابكان رأسه

ـ هل أساء لكِ؟ هو، أو أي شخصٍ من طاقم المستشفى؟

ـ لا.. لا.. ليس فعلاً.. لا.

صمتت ياسمين وانطفأ البريق في عينيها فيما عادت تتابع الأمطار عبر النافذة.. «ترى هل بإمكاني أن أثق به؟»

سؤالٌ كان يسيطر عليها، لقد كانت تحتاج إليه بشدّة، كانت بحاجةٍ لشخصٍ تثق به في سجن المجانين هذا! لقد كانت تخشى الوحدة كثيراً، لكن أي تصرفٍ أحمق أو كلمةٍ غبية ستكلفها كل شيء! كل شيء.

لم يقاطع الطبيب أفكارها حتى حولت ناظريها من على النافذة نحوه، فبادرها بالسؤال:

ـ من أيضاً، سوى الدكتور عماد؟

ـ هناك ضياء، ذلك المقدم غريب الأطوار! لست أفهم أي شيءٍ مما حدث معه حقاً، بل.. وأخشى..

ترددت قليلاً لكن الطبيب الصبور لم يقاطعها أيضاً ولو بإشارة، ظلّ يستمع لها بهدوءٍ تامّ شيءٌ ما فيه، في ملامحه كان يبعث على الطمأنينة

ـ أخشى.. أن يكون متآمراً مع قاتلة زوجي.

التمعت عينا الدكتور لثانية، ربما؛ لكن شيئاً في تعابير وجهه لم يتغير ظلّ هادئاً تماماً وهو يسألها:

ـ تقصدين بخصوص التسجيل في العيادة؟

ـ نعم، نعم، أظن أنه محا التسجيلات، أو تلاعب بها.. أنا.. أنا فعلاً لا أستطيع أن أجزم فأنا أفتقر للكثير من المعلومات.

أطرقت رأسها وتمتمت بصوتٍ خفيض

ـ كل شيءٍ حدث بسرعةٍ كبيرةٍ جداً.

رفعت رأسها له مجدداً بعينين مليئتين بالرجاء

ـ لذا أحتاج لمساعدتك، على الأقل بصفتك زميلاً، أو أستاذاً.

اتسعت ابتسامة د. فؤاد وهزّ رأسه بتفهم.

ـ نعـم يا عزيزتي لا تقلقي، وعدتكِ بأن أساعدكِ، لكن بما أنكِ أتيـت على ذكر الموضـوع؛ هل لكِ أن تخبريني بأسـماء بعضٍ من أسـاتذتك في الجامعة؟ علّني أعرف أحدهم؟ أو لعلي كنت واحداً منهم؟ أم.. أنكِ تخرجتِ من جامعةٍ غربية؟

ـ أنا؟

ـ نعم يا عزيزتي، أنتِ، في أي سنةٍ ومن أي جامعةٍ تخرجتِ؟

ـ كان.. ذلك..

كان السؤال مفاجأً، عبثاً حاولت قيادة مركب الذكريات نحو تلك البقعة السحيقة التي طالب بها الطبيب، لكن أمواجاً من الصور والأحداث كانت تتلاطم من حولها، صورٌ تعرفها، صورٌ تشبهها، وصورٌ لا تعرفها، لا تشبهها، لا تشبهها إطلاقاً! غمرتها الأمواج تماماً، أحسّت بالاختناق، حاولت التشبث بدقّة الواقع باستماتة..

ـ كان ذلك، منذ أمدٍ بعيدٍ جداً... قبل.. قبل مروان!

لم يبـدُ على د. فـؤاد أي إدراكٍ أو إحسـاسٍ بمعاناتهـا، بل ظلّ صامتـاً هادئـاً بانتظار إجابـةٍ لم تتمكن مـن إيجادهـا، لكنها كانت تختنق، كانت تريد أن تتنفس! حاولت تحريك ذراعيها المربوطتين بالسترة الخانقة

ـ هذه السترة تزعجني، تخنقني.. لا أستطيع!

ـ لا بأس، ستنزعينها قريباً، والآن حاولي، حاولي أن تتذكري.

لكنها لم تكن تحاول أن تتذكر، لقد كانت تحاول أن تهرب بكل طاقتها، كانت تحاول الهرب من فيض الذكريات المرعب! لماذا! لماذا كل هذه الصور بداخلي؟ لماذا! لماذا أرى نفسي مكان جلنار وإلى جانبي زوجها المتبجح وأخته المتغطرسة؟ لماذا! لماذا أراني جوري أخرى، مختالةً بشعرٍ مكشوف وثياب فاضحة؟! لماذا! لماذا

أحسّ بدموعٍ حارقةٍ على خديّ وكرسيٍّ آخر يتحطّم تحت وزني الثقيل! أنا! أنا لست سوسن! لماذا! ولماذا أرسم؟ لماذا أرسم! أنا لا أجيد الرسم! أنا طبيبة! طبيبةٌ نفسية.. لكنني فقط! لا أتذكر!

في المرّة التالية التي نظرت فيها للطبيب، كانت الصور قد تسربت من داخلها، فوراءه وحوله، كنّ كلهن واقفات، كلهنّ يبتسمن بهدوء ويحملقن بها!

جوري وشعرها الأحمر الماجن

سوسن وخدّاها الأحمران المشتعلان

جلنّار ونظاراتها الشمسية الغالية

حتى نسرين، بوجهها البريء وابتسامتها الطفولية كانت واقفةً إلى يمين الطبيب الذي نظر نحوها بهدوءٍ صادم.

- د.. دكتور.. ما... الذي يحدث هنا؟

- أخبريني أنتِ، ما الذي يحدث؟

أشاحت وجهها بعيداً في يأس

- أنا.. لا أذكر.. لا أذكر!

- أخبريني، ما الذي كنتِ تنظرين إليه؟

أتاها صوته حازماً قوياً، كجبلٍ متين مطلٍّ على بحر معاناتها، كان عليها اللجوء إليه، لقد تعبت.. تعبت فعلاً؛ دارت بنظراتها عليهن جميعاً، واستقرت عند عيني نسرين الهادئتين.

- إنني، أراهنّ، إنهنّ هنا.. كلهنّ، جوري، جلنار، سوسن ونسرين..

انهارت باكيةً فيما أتاها صوت الطبيب هادئاً واثقاً

- اهدئي يا نسرين، اهدئي؛ لا تقلقي، لقد عبرت شطاً طويلاً جداً اليوم، عودي لغرفتكِ وارتاحي يا عزيزتي، لقد أبليت جيداً.

ضغط على زرٍ على مكتبه مستدعياً وفاء التي أقبلت بابتسامتها

الملوّنـة، لم تبـدّ قبيحةً جـداً هذه المـرة، كادت رجلا ياسـمين لا تحملانها، أسـندتها وفاء إليهـا بحنان، نهضت ياسـمين وخرجت معهـا دون أن تلقـي نظـرةً وراءهـا، لكنهـا كانـت تحسّ بخمسـة أزواجِ مـن الأعيـن تخترقهـا، وصلـت لغرفتهـا وضعتهـا وفاء في السـرير، ربتت على رأسـها أحكمت الغطاء عليهـا كأمٍ حقيقية، ثـم رحلت؛ أغمضت ياسـمين عينيها لتعـاود غرقها في بحرٍ من الصور والذكريات المتلاطمة.

## (٧)

كم من الوقت مرّ عليها وهي غارقةٌ ما بين الأفكار والذكريات، كم من الوقت بقيت جالسةً في الوضع ذاته على الفراش الأبيض في الغرفة البيضاء؟

ساعة؟ ساعات؟ أيام؟ لا يهم؛ فالوقت هنا ليس عنصراً ذا قيمة.

وفاء كانت قد حاولت اختـراق عزلتها أكثر من مرة؛ نادتها بكلا الاسـمين، حدّثتهـا، ربتـت عليها، دون فائـدة وفي كل مـرّةٍ كانت تحمـل معها طبقاً من الطعام أو تأخذ آخـر، آخر الأطباق كان راقداً إلى جانب الفراش، لم يُمسّ كسابقيه.. من يريد الطعام!

ـ أنا! أنا يا ياسمين! أنا.. أريد الطعام.. و.. وهذا الطعام يبدو.. يبدو شهيّاً جداً.

التفتت ياسمين لتواجه عيني سوسن اللتين كانتا تلمعان كعيني قطيطةٍ جائعة؛ كانت جالسةً أمام طبق الطعام، تنظر لها برجاء؛ ليست سوسن فقط من كان موجوداً معها، كلهنّ كنّ هنا، يرحن ويغدين، يأتين ويرحلن.

جلنار كانت تطقطق بكعب حذائها «السنينيه» جيئةً وذهاباً

جوري كانت تنثر شعرها الناريّ وتحيط نفسها بغلالةٍ من دخان سجائرها، حسناً؛ الآن فقط فهمت ياسمين كيف لم يكن دخان جوري يخنقها.

في الزاوية البعيدة عن الباب كانت نسرين جالسةً كعادتها على الأرض، تُعمل أقلامها وألوانها في كراسها بدأبٍ صامت دونما توقف.

أما هي..

ـ هم على حق! أنا مجنونةٌ تماماً!

رمت ياسمين بكلماتها المريرة بعد ساعاتٍ من الصمت والشرود.

ـ هيا الآن! هذه كلمةٌ كبيغةٌ جداً! نحن لسنا مجنونات! ربما... فقط متعباتٌ قليلاً لا أكثر.

صمتت ياسمين تماماً وأخذت تنقل نظرها بينهن، لقد ظلّت تراقبهن طويلاً؛ من أين أتين! وكيف ولماذا تتشارك معهن في الذكريات.. هي.. هي ليست طبيبةً نفسية كما يبدو.. إذاً كيف!

حزمت رأيها أخيراً وقررت أن تتكلم معهن، أن تسألهن؛ فصمتها لم يدفعهن للرحيل، ربما لو تكلمت معهن...

ـ من أنتن؟ وهل أنا.. هي؟

ألقت ياسمين بنظراتها المترددة نحو نسرين التي كانت تبدو منشغلةً عنها وعن الكون بأسره.

ـ حسبتكِ لن تسألي إطلاقاً!

هتفت جوري وهي تطفئ سيجارتها في الجدار اللدن وتقترب لتجلس إلى جانبها، أعطتها جلنار ظهرها مصطنعةً مراقبة رسوم

نسرين، فيما اقتربت سوسن أكثر من الفراش كطفل ينتظر الاستماع لقصةٍ مثيرة

- أنتِ لست نسرين يا عزيزتي فحسب! أنت كلنا، أو إننا كلنا أنت، إمممم بل ربما نكون كلنا هي.. حسناً لا يهم.. ما يهم هو أننا روحٌ واحدة، كلنا آثارٌ من جراحِ حفرها العمر على قلبٍ مسكين، نحن لسنا إلا أوجه متعددة لشخصٍ واحد؛ هذه الصغيرة المسكينة مثلاً أتذكرين عذابك في بداية صباكِ وحربك الدائمة مع الوزن الزائد؟ أتذكرين جمال الذي ادعى حبه وإعجابه بروحك الهيفاء وما أن رآكَ حتى كسر منكِ الفؤاد؟ هنا.. تحطمت سوسن، فأخفيتها بداخلكِ، نفيتيها وقررتِ أن تخرجي للعالم بوجهٍ جديد، فقدتِ الوزن، تزوجتِ.. أو زوجوك لمن لم يفهمكِ، لمن لم يستحقكِ، زواجكِ الفاشل كان أتوناً مستعراً، فيه تمّ صبّ جلنار، لتخرجي بها للدنيا درعاً تقاوم كل غرورهم وتكبرهم، فصرتِ الأكثر غروراً وتكبراً.. صرتِ «جلناغ»

توقفت جوري عن الكلام لتشعل لنفسها سيجارةً جديدة، تألقت النار على طرف مبسمها، فيما تألقت على شفتيها ابتسامةٌ ماكرة، نفثت غيمةً من الدخان ثم تابعت:

- لكن، من يستحمل أن يبقى جلنار لفترةٍ طويلة! كان لا بد من أن تتخلصي منها!

- اصمتي يا وضيعة! أنتِ السبب في كل ما حصل لنا!

تجاهلت جوري كلمات جلنار وثورتها وتابعت بصوتٍ هادئ:

- انتهى زواجكِ بسرعة، وعندها تحررت من زيفهم وقيودهم البغيضة، هنا كان عليكِ أن تتخلصي من ذلك الدرع الثقيل، رميت جلنار في ركنٍ بداخلكِ وبين الفرشاة والألوان وجدتِ نسرين.

توجهت أنظارهنّ جميعاً نحو نسرين، التي بدورها رفعت رأسها ورسمت على شفتيها ابتسامةً لطيفة ثم عادت لأقلامها مجدداً، تترع صفحات كراسها بالخطوط السوداء.

ـ نسرين كانت الأقرب للمثالية بيننا، أحسستِ أخيراً بأنك قد وجدتِ ذاتكِ، عرفتِ هدفكِ في الحياة وصرتِ تلك الفنانة المبدعة الشهيرة، كان لكل شيءٍ أن يكون ممتازاً، لولا جوع هذه المستعر ومرض تلك بالمجتمع وآرائه! فسوسن كانت جائعةٍ لذلك الحب الخرافي الذي طالما شاهدته طوال سني طفولتها على شاشات التلفاز وفي قصص الأميرات ذوات النهاية السعيدة دوماً «وعاشوا بتباتٍ ونبات، وخلفوا صبيةً وبنات»

أما السيدة جلنار فقد ظلّت تتلصص على همسات المجتمع البغيضة، وتبث سمهم ألماً بداخلكِ فصرت المطلقة التي لا ترحمها الألسن؛ وبين إعجاب الناس وحبهم قبعتِ وحيدةً تبحثين.. عن ظلّ رجل وهنا جاء مروان: الرجل الناجح والناشر المشهور الذي أرضى غرور جلنار ومقاييسها الاجتماعية؛ الفنان الحساس، المثقف الواعي الذي تولهت به نسرين حبّاً، الرجل الذي يجيد بشكل ممتاز حبك حبائل الحب والهوى، وبأشعارٍ منقولة ومقتطفاتٍ جذابة طلى كلماته فوقعت سوسن في هواه من اللحظة الأولى؛ أرضاهنّ جميعاً، لكنه لم يرد أيّاً منهن، فهو كان يحترف إخراجي من كل نسائه، لكنك كنتِ الأمهر، لقد أراد تلك الفتاة القويّة المتمردة، المنفلتة من كل القوانين، متوحشة الرغبة والجنون، كل الرجال يا عزيزتي يحلمون سرّاً بجوري فصرتِ له جوري كأروع ما يمكن أن تكون، منحتيه كل ما كان يحلم به وأكثر، وذوت نسرين لتختفي بداخلك إلى جوار جلنار وسوسن.

ـ هذا يعني.. أنني مريضةٌ منذ زمنٍ طويلٍ جداً!

ـ لا لا يا عزيزتي أبداً! الكل بداخلهم ملايين الأوجه والشخصيات، بعضهم يستعملها باحترافٍ كقناع زيفٍ يمتهن استغلاله، البعض يسميها شيطاناً أو إبليساً ويقضي عمره كله هرباً منها، والبعض يزعم أنه «تغير» عندما تذوي قطعةٌ من روحه ليستبدلها بذاتٍ أخرى جديدة؛ هذا طبيعيٌ جداً، إنه حال البشر.

ـ إذاً.. ما الذي حدث؟

ـ الذي حدث يا ياسمينتي الحلوة كان موت مروان

كمن تذكر شيئاً مهما كان قد نسيه تماماً قفزت ياسمين من مكانها هاتفة

ـ مروان! زوجي! هل قتلته فعلاً كما يقول ضياء؟

قهقهةٌ عاليةٌ انفلتت من جوري، فيما غرقت سوسن في بكاءٍ صامت، وردّت جلنار بغضب:

ـ ذلك الحقيغ لم يتزوجنا! كم كنت غبية! لقد جعلنا أضحوكةً للجميع!

ـ ماذا تعنين بـ... «لم»!

ابتلعت جوري ضحكاتها، واكتست ملامحها هيئةً جدية وهي تمتص رحيق سيجارتها بهدوء، رسمت ملايين اللوحات في سحابةٍ من دخان، في حين أطلقت الحقيقة من بين شفتيها مباشرةً صريحةً واضحةً:

ـ كان عشيقاً، لا زوجاً.

ـ ومن يغِضى أن يتزوج عاهغةً مثلها!

رمت جوري جلنار بنظرةٍ نارية، في حين رسمت الأخيرة ابتسامةً شامتةً على وجهها المتغطرس، تمتمت ياسمين بضعف:

ـ عشيقاً!

ـ حسناً؛ آن لكِ أن تتذكري أليس كذلك؟

وكأنما ضغطت جوري على زرٍّ سحري، صمت الكون بأسره لتجد ياسمين نفسها مغلفةً تماماً في ذكرى محددة..

*ـ حبيبتي نسرين، اشتقت لكِ*

خفق قلبها وهي تغوص في ياسمين الماضي، لتعيش إحدى أجمل لحظات حياتها، أحست بوجنتيها تتوهجان.

*ـ شرّفتِ شقتي المتواضعة*

*كان يرتدي ذلك الروب الأخضر الزيتي الذي كان يليق به جداً فيزرع وهجاً أخضر في عينيه البنيتين، أغلق الباب خلفها ومنحها عناقاً هادئاً، أحسّت بدفء صدره ميناءً ترسو عنده سفن أحلامها، يااااه يا مروان كم اشتقت لك!*

*تقدمته إلى غرفةٍ أنيقة، أريكة عصريةٌ مريحة وطاولةٌ منحوتةٌ في مزيج بين الإتقان والابداع، لكن كم كانت مفاجأتها ضخمةً وهي تواجه تلك اللوحة المتربعة على طول الجدار، ممهورةً بتوقيعها «نسرين علّام»، الألوان الصارخة الضربات الدقيقة وذلك القلب الصغير جداً.*

*ـ إذاً كان أنت من اشتراها!*

*ـ أسميتِها «عشق» فما كان لي أن أسمح لأحدٍ غيري بأن يمتلكها.*

*أدارها لتواجهه، غاصت في بحر عينيه الساحرتين.*

*ـ كل نبضة عشقٍ في قلبك، لي أنا فقط.*

*رائحة عطره البري المتوحش غمرتها، أسكرتها الـ«كينزو جنجل» أغمضت عينيها وتركت شفتيها تذوبان بين شفتيه الولهتين، غاب عقلها وتساءل قلبها أيمكن لكل هذه السعادة أن تجتمع في لحظةٍ واحدة! بدأت يداه تسافران على جسدها، دقّت نواقيس الخطر فأبعدته عنها بحزم.*

ـ تعقّل يا مروان!

ابتسم مروان وأجلسـها على الأريكة في مواجهة اللوحة، شغّل جهاز الموسيقى واستأذنها لدقائق؛ للموسيقى علـى الروح وقع السحر، قلبها كان مترعاً بالسعادة القصوى، الحب رحيق الفردوس المفقود، الكل يسعى نحوه بجنون وهي.. قد وصلت له أخيراً.

عاد بكوبين من العصير ابتسم وهو يرد على ابتسامتها المتسائلة

ـ لا لا.. لا تقلقي.. مجرد عصير التوت لا أكثر، فحبيبتي تحب الفاكهة الحمراء

وكأشهر الكليشيهات على وجه الأرض انسكب العصير على ثيابها، اضطرابٌ متقن بدى على مروان وهو يشكر الصدف التي جعلته يحضر لها هديةً مناسبةً للظرف، مناسبةً أكثر من اللازم

ومن كرسي مجاور تناول ثوباً مغرياً أحمر اللون

ـ كنت أتمنى أن أراكِ به يوماً، لكنني لم أتوقع أن أكون سعيد الحظ لهذه الدرجة! فأراكِ فيه بهذه السرعة!

رمته بنظرة شكّ ردّ عليها ببساطة

ـ فقط حتى ننظف البقعة على هذا ويجف، سأنظفه أنا فالخطأ خطأي، وإن كان خطأً حميداً.

ضحكته الواثقة جرفتها، ربما... ربما لم تكن ساذجة، ربما كانت ترغبه أكثر مما كان يرغبها.

دلّها على الحمام حيث بدلت ثيابها

ـ لم أكن أعرف أن الحور العين موجوداتٌ في دنيانا البائسة هذه!

اقترب منها كثيراً، علا صخب قلبها وفوران الدم في عروقها

ـ لن تتوقعي مني أن أقاوم هذه الفتنة كلها أليس كذلك؟

ذلك الثوب الأحمر، تلك اللحظات السحرية كانت، تاريخ ميلاد جوري.

فتحت ياسمين عينيها ببطء ولذّة الذكرى العزيزة ما زالت تداعب روحها، رمتها جلنار بنظرة احتقار، سوسن كانت تبتسم حالمةً أما جوري فقد قابلت ابتسامة ياسمين بوجهٍ جامد

ـ أكملي.

ـ ماذا؟

ـ هناك المزيد!.. أكملي.

أغمضت ياسمين عينيها مجدداً وهي تتوق للمزيد من السعادة المختزنة، وجدت نفسها في الشقة ذاتها، الأريكة ذاتها، الطاولة ذاتها، جهاز الموسيقى، العصير، الثوب الأحمر والصدفة المفتعلة تنتظر، هو بثوبه الأخضر ذاته، وعطره الوحشي الآسر، لكن... لوحتها كانت غائبة، مكانها.. تربعت صورة غلاف روايةٍ لكاتبةٍ ناشئة، مكبراً، مؤطراً، نقش عليه.. اسم أخرى

وجهه، وجهه أيضاً كان مختلفاً، كانت المرّة الأولى التي ترى فيها ذاك الوجه، وجه العنكبوت القبيح، صائد أجنحة الفراشات، صوته الذي طالما أذاب قلبها، كان بارداً، قاسياً، يطالبها بنسختها من مفاتيح الشقة، وبأن ترحل... بسرعة. وجهها كان يعجّ بجثث مشاعرها المغتالة تنساب دموعاً حارقةً على وجنتيها؛ ترى كم خدع من نساءٍ قبلها... وكم سيخدع بعدها؟

ـ لا تتصنعي المفاجأة، فأنتِ لست تلك العذراء الغرّة التي فقدت شرفها!

ضحكةٌ قذرةٌ تراقصت على شفتيه، صدى صوتها كان سياطاً تجلد ما تبقى من كيانها، كل هذا القبح! كل هذه الشناعة! كان عليها أن تزيلهم، تزيلهم بأي ثمن.

ربما كان الشـيطان، أحد شـخصياتها، أو ربمـا كان جوري من لمـح لمعان سـكين الفاكهـة على الطاولـة، ربما لما تكـن هي من أمسـك السـكين وحاول مسـح تلك الضحكة البغيضة، ربما احتل كيانٌ ما عقلها وروحها، وجسـدها لتسـتيقظ والسكين تقطر دماً في يدها ومروان ملقـى على الأرض واللون الأحمر الذي طالما أحب يتسلل منه بهدوءٍ مرعب.

انطفـأت الذكرى فجـأةً، فتحت عينيهـا لتجد نفسـها غارقةً في دموعهـا، فـي غرفتها البيضاء، وحيـدة.. فقد رحلـن جميعاً، كلهنّ رحلن... لقد.. انتهت الجلسة.

# (٨)

كل شــيءٍ كان يبدو أكثر وضوحاً بعد هطول أمطار الحقيقة، كل شــيءٍ كان يبدو أكثر منطقية، كانت تحـس بوطأة الجراح الدفينة بل وقد أدمنت الضغط عليها، لتشـعر بواقعية ألمها، أسئلةٌ كثيرة كانت تضج بها أفكارها، إلا أن سـؤالاً وحيداً أخـذ يتضخم ليأخذ حجم الوجود بأسره:

ـ جوري..

ـ نعم يا ياسمين؟

ـ لا.. لا أنا لست ياسمين... بل نسرين.. و... فعلياً، هذا ما كنت أودّ أن أسألك إياه... من.. من هي ياسمين؟

تأملت جوري الرماد وهو يتناثر من طرف سيجارتها المتقدة، نفخته عن أصابعها بهدوء وردّت ببساطة:

ـ أنتِ الطبيبة النفسية.

ـ أعرف أنني، أنها..، أن ياسمين طبيبة نفسية.. لكن متى؟ وكيف ولدت ياسمين؟

كفّت جلنار عن التجوال في الغرفة وجلست إلى جانب سوسن وأومأت لجوري برأسها؛ أطفأت جوري سيجارتها في الأرض أمامها ثم ارتمت على الفراش محدّقةً بالسقف.

ـ عندما يَقتُل المرء إنساناً، تتفتت روحه لأجزاء صغيرة جداً ينبذها جميعاً رافضاً روحه وذاته ووجوده بأكمله؛ أنتِ خُلقت في تلك اللحظة الدقيقة جداً، طردتنا جميعاً خارج روحك فظللنا نلاحقك ظلال وعيٍ تائهٍ ممزق، سميتينا مريضاتك وقد كنا مرضك، كنا سبب مأساتكِ؛

سوسن بضعفها واحتياجها لآخر يكملها، تلك الشخصية الضعيفة واستماتتها في إرضاء من حولها، رمتك طائعةً في أحضان مروان تمنحينه أي شيءٍ وكل شيء، فقط لتحسي بأنك تستحقين الحب.

جلنار بخوفها من المجتمع، دفعتك لأحضانه دفعاً، هرباً من لقب «مطلّقة» وسعياً وراء لقب «زوجة»؛ وعندما غرقنا في مستنقعاته وتلطخنا بلقبِ استحققناه بجدارة..

ـ عاهِرة.

قاطعتها جلنار بلؤم

ـ نعم هو ذاك اللقب، أطلقته جلنار عليك بقسوة طوال الوقت، أدانتك مجرمةً في عيون نفسك، وكم يسهل على المجرم أن يفكر بإمكانية محو جريمته بجريمةٍ أكبر وأشنع

أما أنا فأنا الجريئة القوية، أنا الخطيئة، أنا صنيعة يديه، وأنا من قرر في النهاية أنه.. كان يستحق الموت

ـ وماذا عن نسرين؟ هي لم تخطئ مثلكن!

ـ نسرين! ظننتك عرفت بنفسكِ!

نظرت لها ياسمين والحيرة تبدو على وجهها، نهضت جوري من رقادها واتجهت نحو تلك الزاوية حيث كانت تقبع نسرين وكراسها

ـ تظنين أنني من قتل مروان أليس كذلك؟ بسكين الفاكهة! لا طبعاً، لو كنت لأقتل لاستخدمت السم طبعا، القتل بسكين الفاكهة قتلٌ عاطفي، يحتاج لمشاعر أقوى من مجرد الكره والاحتقار، يحتاج لشيءٍ أعمق وأكبر، يحتاج لعاشقٍ حقيقي، الوحيدة بيننا التي عشقت مروان بحق.. كانت نسرين، هي.. وحدها من قتل مروان

أنهت جوري كلماتها وهي تسحب الكراس من بين يدي نسرين وترميه نحو ياسمين، أمسكت ياسمين الدفتر وأخذت تقلب الصفحات بيد مرتعشة؛ الصفحات كانت ملأى بصور مروان وهو يضاجع أخرى، يضاجعها بأكثر الأوضاع شبقاً ووحشية، أخذت أصابعها تقلب الصفحات بجنون مستعر حتى وصلت للصفحة الأخيرة، الصفحة الأخيرة كانت حمراء تماماً؛ صرخت ورمت الكراس من يدها، لكن اللون الأحمر كان قد علق بها، بأصابعها، بيديها، قطرات الدم أخذت تتقاطر من يديها وهي تصرخ بجنون

ـ لا! لا! كفى لا

ومع الصراخ الجنوني فُتح الباب ودخلت وفاء الطيبة تتجه نحوها مسرعة، ركضت ياسمين نحوها لتتهالك بين ذراعيها.

ـ أرجوك يا وفاء أرجوك يداي! يداي! أرجوك ساعديني

حاولت وفاء أن تحتضنها فيما أخذت جلنار تسخر منها، انقضت عليها ياسمين لتقع أرضاً وهي تصرخ

ـ ارحلي، ارحلي! ارحلن كلكنّ، قولي لهن يا وفاء أرجوك! أتوسل إليكِ!

عينا وفاء كانتا حزينتين جداً، هي أيضاً كانت حزينة جداً، لم تعد تتحمل المزيد، جسمها المكدود كان قد بلغ حدّه تماماً، أخيراً سمح لها عقلها أن تهرب من كل شيء لترتمي في أحضان غيبوبة صامتةٍ تماماً.

## (٩)

الهدوء والشرود، صفتان بدأتا تلازمان ياسمين بصورةٍ دائمة، ربما خلقت لنفسها وجهاً جديداً، ربما هي شخصيةٌ جديدةٌ من الشخصيات الكثيرة الكامنة بداخلها.

«إن صح ذلك فستكون عجوزاً تبلغ الستين ونيّف» فكرت ياسمين بأسى وهي عائدةٌ من مكتب الدكتور عماد؛ الفتيات كلهنّ كنّ يتبعنها، جوري ودخانها الأليف، جلنار ومفتاح السيارة الذهبي يتراقص بين أصابعها، سوسن التي كانت تقضم قطعةً كبيرةً من لوح شوكولا ضخم، ونسرين التي كانت تراقب كل شيءٍ حولها بعيني طفلٍ متسائل.

لقـد تعـودت على وجودهـنّ الدائـم، تعودت علـى حوارهنّ، خصامهـنّ، ضوضائهنّ، لكنهـا كفت تماماً عـن مبادلتهم الحديث هكذا نصحها الدكتور فؤاد في جلستهما الأخيرة.

ـ عليكِ يا عزيزتي أن تتجاهليهنّ تماماً.

ـ ألن يرحلن أبداً؟

ـ ربما يرحلن، وربما يبقين للأبد، لكن عليكِ أن تُحكمي سيطرتك

على ذاتك ووعيك بشكل كامل، عليكِ أن تجدي ذاتكِ الحقيقية وأن ترسمي حدوداً خاصةً بها لا تتمكن أيهنّ من تجاوزها، وهذا هو المهم.

لكن أين تجد نفسها في وسط هذا الركام! بين أشلاء مستقبلٍ منتهٍ تماماً وماضٍ لطّخه الدم!، في دمارٍ شاملٍ مزّق روحها أين تجدُ نفسها!

ـ التصقي بالواقع، تشبثي به، إياك والاقتراب من الوهم، الوهم كالرمال المتحركة إن اقتربت منه ابتلعك تماماً.

لكن الواقع كان مؤلماً.

د. فؤاد كان قد سافر ليحضر مؤتمراً طبياً كما أخبرتها وفاء، لكن الدكتور عماد كان يلتقي بها كل يوم، يسألها، يناقشها، يتابع حالتها ويساعدها، ربما لم يكن بمهارة الدكتور فؤاد، لكن وفاء كانت محقة فهو لم يكن غبياً على الإطلاق، لقد كان.. طبيباً.. جيداً.

خلال زيارتها لمكتب الدكتور عماد، كان الهدوء يعمّ أيامها، اللون الأبيض البغيض كان الآن يبدو لوناً حيادياً هادئاً ومريحاً؛ د. عماد كان قد منحها كراساً وأقلاماً..

ـ أنتِ نسرين علّام، فنانةٌ مشهورةٌ ومبدعةٌ عبقرية، حاولي أن تتذكري ذلك.

لكنها لم تكن قد تمكنت بعد من التغلب على خوفها من الأوراق والأقلام، خصوصاً ذات اللون الأحمر.

جلست على فراشها بهدوء محاولةً تجاهلهنّ كالعادة، كالعادة احتدم النقاش بين جوري وجلنار... حول لون جورب وفاء! كادت تضحك للطريقة التي دار بها النقاش، لكن أيّ ردة فعلٍ منها كانت ستعيدها لوسط دائرتهنّ اللا متنهية من الضياع، كان عليها أن تحافظ على المسافة الآمنة التي تمكنت من وضعها بينها وبينهم بصعوبة، وكما في الأيام السابقة، يئسن من صمتها فرحلن.

سمعت صوت مزلاج الباب، لا بد أنها وفاء، تحمل وجبة الغذاء، جيدٌ أن سوسن ليست هنا، فهي مؤخراً كانت تعذبها بطلب الكثير من الطعام الدسم، والحلويات التي بات الحصول عليها ضرباً من ضروب الأحلام، قررت أن تتناول طعامها بسرعةٍ دون تركيز كي لا تستثيرها فتعود.

لكن وفاء، لم تكن وحدها على الباب، فقد وقف خلفها آخر شخصٍ كانت تتوقع أن تراه، المفاجأة ألجمت لسانها تماماً!

ناولتها وفاء وجبتها، ودون أيّ حرفٍ خرجت مغلقةً الباب من خلفها، بصعوبة تمكنت ياسمين من أن تجد صوتها لتهتف بصوتٍ مبحوح:

ـ قيس!

ابتسم لها بحنان، أحست نحوه بألفةٍ شديدة، وضعت الطعام جانباً واسرعت نحوه لترمي نفسها بين ذراعيه، لتلمس ذراعاها خواء الغرفة الفارغة.

ـ أنت! أنت أيضاً!

لم يرد قيس، حافظ على البسمة الحنونة على وجهه فيما أخذ شعره يتغير للون الأبيض بسرعةٍ خارقة، نبت له كرشٌ صغيرٌ تحت ثيابه، وطفت الكثير من التجاعيد متراقصةً حول عينيه وفمه.. كادت أنفاسها أن تتوقف

ـ أبي!

اتجه نحوها وجلس إلى جانبها بصمت

ـ إذاً أنت...

ـ نعم يا عزيزتي أنا والدكِ، أنا كل ما اختزنتيه في داخلك عني، عن مشاعري وعواطفي، أنا صوت ضميرك، والحب الأول في

حياتكِ، أنا أكثر مخلوقٍ أحبك على وجه الأرض لذا، سميتني قيساً.

غرقت في ملامحه الحبيبة، لقد رحل عنها مبكراً جداً، وتركها وحيدةً أمام دنيا قاسيةٍ لا ترحم.

ـ أبي، لماذا رحلت؟

ـ لا يا حبيبتي أنا لم أرحل أبداً، كنتِ تحملينني دوماً بداخلكِ، لكن...

غيمة حزنٍ طافت بالعينين الحبيبتين وهو يكمل:

ـ لكنكِ أنتِ من تركتني.

ـ أنا!

ـ نعم أنتِ، تذكرين، كيف كان مروان يلوم عليك ذكرك الدائم لي، حسبته يغار مني، تذكرين كيف قال لكِ يوماً إنك طفلةٌ مدللة وأنك لم تكبري يوماً وأن ذلك هو سبب ضعفكِ، تذكرين كيف طالبك أن تكفي عن الاختباء خلف خيال أبيكِ؟ كان يعلم جيداً أنني لن أسمح له أبداً أن يؤذي ابنتي الحبيبة، كان يعلم أنني صوت ضميرك فكان عليه أن يطفئني ليتمكن من تحويلك إلى جوري التي يريد، وقد نجح في ذلك... للأسف.

الدموع أخذت تقفز من عينيها متتاليةً سريعة، إحساسٌ عارمٌ بالعار والذنب كان يغمرها.

ـ سامحني يا أبي، أعذرني، لقد كنت مغفلة، لقد كنت يائسة! عندما رحلت صرت أبحث عنك في ملايين الرجال، لكن أحدهم لم يتمكن من أن يشبهك ولو قليلاً.

غمرها بدفء نظراته، أحست بابتسامته تربّت على قلبها برقّةٍ وحب، استكانت للشعور الجميل قليلاً ثم التمعت عينيها مع فكرةٍ طافت في ذهنها.

ـ لهذا أعدت خلقك في عيادتي من جديد؟
ـ هذه هي فتاتي الذكية!
كما كانت تذكره دوماً، عندما كان يقرر الحديث في موضوع جدّي، نهض، دار في الغرفة دورتين، وعاد ليجلس إلى جانبها وعيناه شاردتان في الفراغ أمامه
ـ كما سبق وعرفتِ، الصدمة أدخلتكِ في حالةٍ نفسيةٍ سيئة، فانفصلتِ عن الواقع وصنعتِ لنفسكِ عالماً خاصاً، غيرت سكنك، اسمك، حتى إنك استأجرتِ عيادةً لتعالجي فيها ذاتكِ الكسيرة، وبما أن وجودي كان واحداً من أهم ركائز شفائكِ، قام عقلك بإعادة خلقي في عالمك الخاص، لكن قلبك أيضاً لعب لعبته فأعاد خلق مروان ليحقق أمنيتك في كونه زوجاً لكِ، وكما هو متوقع دار الصراع الدائم بين العقل والقلب، وللمرة الثانية، خيّرك مروان بينه وبيني.
ـ وقد أخطأت الاختيار للمرة الثانية! يا لي من غبية! يا لي من بلهاء!
ـ لا بأس يا حبيبتي، لا بأس، مهما قلنا بأننا تعلمنا من أخطائنا، مهما قلنا، بأننا لن نكرر الخطأ ذاته لو عاد الزمن بنا مجدداً، لكننا دوماً نعود للنقطة ذاتها ونتخذ القرارات الغبية ذاتها، لأن قلوبنا مبرمجةٌ على ردّة فعلٍ واحدة، لا تتغير.
شردت عيناها في الفراغ أمامها، كانت سعيدةً جداً بوجوده إلى جانبها، تحس بدفء كلماته بلسماً يطيب جراحها وآلامها، لكنها كانت تعرف أنه لن يعود مجدداً، كانت تعرف أن عليها أن تحتفظ به داخلها فقط كي لا تخسره مجدداً.
ـ أبي.. لماذا حدث كل هذا لي؟
ـ يا حبيبتي أظن بأنكِ بتِّ قادرةً على إجابة هذا السؤال بنفسك.

صمتت قليلاً مفكرةً ثم هزّت رأسها ورفعت نحوه عينين دامعتين

ـ لأنني سـمحت للدنيا وأوجاعها أن تسـرقني، تسرق أصالتي، سمحت لها أن تغيرني، وفي كلّ مرّةٍ كنت أسمح لها أن تقولبني كما تشـاء كانت تصبغني بألوان لا تشبهني؛ لأنني تغيرتُ مراراً وتكراراً حتى نسيت هويتي ومن أكون، فضعت للأبد.

ـ نسـرين حبيبتـي لأجل هذه الكلمـات فقط يا حلوتـي خُلقَت ياسمين.

أخذ الوجه الحنون يتلاشى في الهواء، لكنها كانت تحسّ بدفء لمسـته على روحهـا، فيما أخذ أمـلٌ صغيرٌ جداً يتوهـج بداخلها.. ربما.. هنا، ستتمكن من إيجاد نفسها الضالّة... يوماً ما.

## تمت

حلب ـ ٢٤\آذار\ ٢٠١٥

## وبعد كل ما قرأنا، إهداءٌ أخير:

لكل مروانٍ مرّ بحياتي وجاء وقتٌ ودَدْتُ فيه لو أمزّقه بسكين الفاكهة تماماً كما فعلَتْ بطلتنا، شكراً لك فقد ساهمتَ في زرع بذرة هذا العمل.

# شكر واجب

**د. مصطفى حسين سلطان** «مدير عام سابق مستشفى العباسية للأمراض النفسية والعصبية» نظرة خاطئة نحملها جميعنا للمرضى النفسيين وللمؤسسة الرائعة التي كنت تديرها، أشكرك على تصويب الكثير من معلوماتي الخاطئة.

فامباير الأدب العربي: **أ. محمد عصمت** لمتابعتك للعمل ومساعدتك، أشكرك.

الكاتب العبقري: **أ. أحمد القرملاوي** على نصحك وإرشادك الذي أضاف الكثير للعمل

الكاتب المبدع: **د. محمد ابراهيم** أشكرك على دعمك المستمر

المحامي الصديق: **أ. إيهاب الجارحي** أشكرك على إرشادي ومساعدتي للوصول لأكبر قدرٍ ممكن من الدقة في الشؤون القانونية

المهندس الزميل: **مازن عبد العزيز رضوان** أرهقتك بأسئلتي المتعددة شكراً على مساعدتك

الكاتبان الزميلان: **بيتر ماهر توفليس الصغيران، فوزي**

صديقة الطفولة: **حلا خوري** صديقتي الغالية: **شيماء عصافير**

زملاء الكفاح: **أحمد حامد أكرم الشافعي**

قراءاتكم وملاحظاتكم جميعاً في العمل لم تكن مجرد قراءات بل كانت مساعدات فعلية في كتابة عملٍ أرضى عن إطلاقه للعالم بثقة.

وأخيراً وليس آخراً تحية خاصة لغطاس المجاري، شكراً للبسمات المتكررة التي ترسمها على وجوهنا في أحلك اللحظات.




للورد ذاكرتان .. ذاكرة الجمال وذاكرة الوجع .. جمال الشكل والرائحة .. ووجع القطف، ووخز الشوك الصغير في كل غصنٍ أخضر يافع لكل وردة ! وياسمين طبيبة نفسية تعالج خمس حالات، تجد في كل منهم أثر الرحيق، ووخز الأشواك ..

ياسمين لم تكن تعرف أن مرضاها قد يحولون حياتها إلى جحيم مستعر لا يهدأ ولا يستكين .. هل تعلمون أن بعض الأزهار تفترس الفراشات ؟! تلك معلومة حقيقية بالفعل .. كذلك بعض الأشخاص المستكينة الخانعة يمكنها افتراس من يحاول علاجهم ..

ياسمين ستحاول الصمود للنهاية .. لكن المعلومة الحقيقية الأخرى. أن بعض الأزهار تأكل نفسها في حالات الضغط، وأوقات الكساد .. إنها رواية مثيرة .. بقدر ما فيها من دفء، بقدر ما فيها من غموض .. كُتبت بقلم كاتبة سورية، تعرف كيف تنبت الوجع من وكيف تصنع البسمة فوق أشواك الورود.



تصميم الغلاف كريم آدم



ISBN 978-977-6426-82-5



